j180degree.com

الباب التاسع والعشرون

الأسس السياسية والخلقية

محاولات لدراسة الموضوع

إذا أقدمنا الآن على تصوير اليابان التى أسدل عليها الستار عام ١٨٥٣ ، فلنذكر أنه من العسير علينا أن نفهم — كما قد يكون كذلك من العسير أن نحارب — شعباً يبعد عنا خمسة آلاف ميل ، ويختلف عنا لوناً ولغة وحكومة وديانة وخلقاً وعادات وشخصية واهدافا وأدباً وفناً ، ولقد كان « هيرن » أوثق صلة باليابان من أى كاتب غربى آخر فى عصره ، ومع ذلك فقد ذكر « الصعوبة الشديدة فى إدراك وفهم ما يكمن تحت السطح الظاهر من الحياة اليابانيـــة »[١] ، وكتب أديب يابانى بارع مقالة يذكر فيها الغرب بأن : « ما تعلمه عنا قائم على ما جاءك من ترجمة هزيلة لأدبنا ، إن لم يكن قائماً على الحكايات المشكوك فى صحتها مما يرويه لك عنا الرحالة العابرون ... فما أكثر ما يروعنا نحن الأسيويين هذا النسيج العجيب الذى يمزج الحقائق بالأوهام حين تتحدثون عنا أيها الغربيون ؟ فتراكم تصورون كأنما نعيش فى عالم كله عطر من زهرة اللوتس ، أو نعيش على طعام من الفثران والصراصير »[٢] فلن تجد فيما يلى — إذن — أكثر من محاولات — قائمة على معرفة مباشرة موجزة أشد إيجاز — لدراسة الحضارة اليابانية ، والخلق اليابانى : وينبغى لكل باحث أن يصحح هذه المحاولات بما يقع له من خبرة شخصية طويلة ، فالدرس الأول الذى تلقيه علينا الفلسفة هو أننا قد نكون جميعاً مخطئين .

http://nj180degree.com

الفصل الأول

طبقة الساموراى (أى حملة السيف)

الإمبراطور الذى لا حول له — سلطة « الشوجن » (أى الحاكم العسكرى) — سيف « الساموراى » — قانون « الساموراى » « هاراكيرى » — « الروفانات » السبعة والأربعون — حكم قضى بتخميفه

يقوم على رأس الأمة — من الوجهة النظرية — الإمبراطور المقدس ، وكان البيت الحاكم حقيقة — وأعنى به الحكم العسكرى الوراثى — يسمح للإمبراطور وحاشيته بمبلغ يعادل خمسة وعشرين ألف ريال كل عام ، مقابل الاحتفاظ بالأسطورة النافعة التى تؤثر فى النفوس أثراً عميقاً ، أسطورة اطراد الحكم فى بيت واحد(*) ؛ وكان كثيرون من رجال الحاشية يزاولون حرفاً يدوية منزلية ليكسبوا نفقات عيشهم : فبعضهم يضع المظلات ، وبعضهم يصنع الملاعق الخشبية أو لاقطات الفضلات من بين الأسنان أو ورق اللعب ؛ وجعل الحكام العسكريون من أسرة « توجوواكا » من مبادئهم ألا يتركوا للإمبراطور ذرة من السلطان ، وأن يعزلوه عن الشعب ، وأن يحيطوه بالنساء ويفتّوا من عضده بالتخنث والتعطل ، ونزلت الأسرة الإمبراطورية عن سلطاتها فى كفاح ، وقنعت بأن ترسم للعلية ألوان البدع فى الثياب [٣] .

أما « الشوجن » (أى الحاكم العسكرى) فقد كان حينئذ ينعم بثروة اليابان التى أخذت تتزايد ، واصطنع لنفسه امتيازات هى عادة من حق الإمبراطور فإذا سار فى الطريق محمولا فى عربته التى يجرها ثور ، ومحمولا فى محفته ، أمرت الشرطة كل المنازل على طول الطريق أن تقفل أبوابها والمصاريع الخشبية فى نوافذها العليا ، وأن تطفأ كل النيران وأن تحبس الكلاب

(*) ربما كان هذا المبلغ مساوياً لربع مليون ريال بقيمة العملة الامريكية الجارية .

j180degree.com

والقطط كلها داخل الدور ، وأن يسجد الناس على جانبي الطريق ، رءوسهم على أيديهم وأيديهم على الأرض[٤] ؛ وكان « للشوجن » حاشية كبيرة ، منها أربعة مضحكين وثمانى سيدات مثقفات واجبهن أن يسلينه فى غير التزام لقواعد الاحتشام[٥]، وكان إلى جانبه مجلس وزراء استشارى قوامه اثنا عشر عضوا : كبير الوزراء ، وخمسة وزراء ، ثم ستة من الشيوخ يكونون مجلساً أصغر ؛ وكان هناك — كما كان فى الصين — مجلس للرقابة مهمته أن يشرف على المناصب الإدارية كلها ، وأن يراقب أمراء الإقطاع ؛ مع أن هؤلاء الأمراء — (أو « الدايميو » كما يسمونهم ومعناها « أصحاب الأسماء العظمى ») لم يكونوا يعترفون من الوجهة الصورية إلا بالإمبراطور ، هو الذى يولونه ولاءهم ، بل استطاع بعضهم — مثل أسرة شيمادزو التى كانت تحكم إقليم ساتسوما — أن ينجحوا فى الحد من سلطة الشوجن ، حتى انتهى بهم الأمر إلى طرده من الحكم

وكان يتلو أمراء الإقطاع طبقة السادة (بارونات) ثم يتلو هؤلاء طبقة المشرفين على الأراضى ؛ وكذلك كان يحيط بالأمراء ألوف من فئة « الساموراى » — والساموراى هم حراس يحملون السيف ؛ فالقاعدة الرئيسية فى المجتمع الإقطاعى اليابانى هى أن كل رجل من السادة هو جندى ، والعكس صحيح ، أى أن كل جندى هو كذلك من السادة[٦] فهاهنا يقع أكبر اختلاف بين اليابان وبين الصين المسالمة التى ظنت أن شرط الرجل من السادة هو أن يكون عالماً لا أن يكون محارباً ؛ وعلى الرغم من أن حملة السيف هؤلاء كانوا يحبون قراءة القصص التى تغذى فيهم انتفاخ الأوداج ، مثل القصة الصينية التى عنوانها « قصة المماليك الثلاثة » ، بل كانوا إلى حد ما يصوغون حياتهم على نموذج تلك القصص ، إلا أنهم كانوا يزدردون العلم للعلم ، وكانوا يسمون ، العالم الأديب بالسكران الذى يفوح برائحة الكتب[٧] ، وكان لهم امتيازات كثيرة ، فهم معفون من الضرائب ، ولهم الحق فى مقدار من الأرز يعطيهم

http://nj180degree.com

إياه السيد الذى يخدمونه ، ولم يكن يطلب إليهم أن يعملوا شيئاً إلا أن يموتوا فى سبيل وطنهم إذا ما دعت إلى ذلك الظروف ؛ وكانوا يحتقرون الحب ويعدونه لعبة رشيقة ، ويؤثرون علاقة الصداقة على نمط إغريقى : والميسر والعربدة كانا جزءاً متمما لعيشهم ولكى يحافظوا على مران سيوفهم ، كانوا يدفعون المال للجلاد فى مقابل أن يسمح لهم بجز رقاب المحكوم عليهم بالإعدام(٨) فسيف رجل من فئة « الساموراى » هو بمثابة روحه - على حد تعبير « أبياسو » وكثيراً جداً ما كان يجد الفرصة التى تدعوه إلى استعمال سيفه ، على الرغم من المدة الطويلة التى نعمت فيها اليابان بالسلام ؛ فله الحق — إذا أخذنا بما يقوله « أبياسو »(٩) — أن يقضى فوراً على أى إنسان من الطبقات الدنيا إذا ما أساء إليه ؛ وإذا كان سيفه جديداً وأراد أن يجربه ، فيجوز أن يجربه فى سائل كما يجوز أن يجربه فى كلب(١٠) وفى ذلك يقول « لنجفورد » : « إن سيافاً مشهوراً قد اقتنى سيفاً جديداً ، فوقف إلى جانب « ينهون باشى » (وهذا اسم جسر فى وسط مدينة ييدو) ينتظر فرصة لاختبار مضاء سيفه ، فجاء فلاح بدين ساعياً فى الطريق ، مرحاً بفعل الخمر ، فقابله السياف بضربة يسمونها « ناشى وارى » (ومعناها شق الكمثرى) وأصابت الضربة مرادها إذ شقت الرجل نصفين ، من قمة رأسه إلى مفرق فخذيه ، فمضى الفلاح فى طريقه غير عالم بما نزل به ، حتى اصطدم بجمال فسقط نصفين مشطورين على أدق صورة »(١١) فما أتفه الفرق بين « الواحد » و « الكثير » هذا الموضوع الذى دوخ الفلاسفة فى فهمه .

لكن هؤلاء السيافين كانت لهم لطائف أخرى غير هذه المهمة المرحة التى كانوا يحولون بها الفناء خلود ؛ فقد التزموا أوضاعاً صارمة اشترطوها للرجل الشريف — ويطلق على مجموعة هذه الأوضاع اسم « بوشيدو »(*)—

(*) صاغ هذه الكلمة إنازو نيتوبى .

j180degree.com

ومعناها « طرائق الفروسية » وجوهر فكرتها فيه تعريف لما ترمى إليه من فضيلة : « هى القدرة على اختبار سلوكك فى الحياة وفق ما يمليه العقل دون تردد ، وأن تموت حين يجب عليك أن تموت ، وأن تضرب حيث ينبغى لك أن تضرب »[١٢] وكانوا يحاكمون بمقتضى تشريعهم هذا ، وهو أقسى من القانون السائد بين عامة الناس[١٣] وكانوا يزدرون كل الأعمال والمكاسب المادية ، ويأبون أن يقرضوا المال أو يقترضوه أو يحسبوه ، وقلما أخلفوا وعودهم ، وكانوا لا يترددون فى المخاطرة بحياتهم عوناً لكل من استنجدهم المعونة ؛ وأخذوا على أنفسهم أن يحيوا حياة خشنة مقترة فلا يأكلون فى اليوم إلا وجبة واحدة ، وكانوا يروضون أنفسهم على أكل ما صادفهم من طعام كائناً ما كان ؛ وكانوا يحتملون الآلام على اختلافها صامتين ، ويكبحون فى أنفسهم كل ما قد يدل على انفعالاتهم الداخلية ، وعلموا نساءهم كيف يتهللن بشراً إذا ما نمى إليهن أن أزواجهن قد قضوا نحبهم فى ساحات القتال[١٤] ولم يكونوا يلتزمون طاعة إلا طاعة الولاء لرؤسائهم ، فطاعة الرؤساء جزء من تشريعهم الذى وضع تلك الطاعة فوق حب الآباء لأبنائهم أو الأبناء لآبائهم ، ومن مألوف الأمور عند « الساموراى » (أى هؤلاء السيافين) أن يخرج الرجل منهم أمعاء نفسه إذا ما مات سيده لكى يخدمه ويحميه فى الحياة الآخرة ؛ فلما كان « الشوجن » (أى الحاكم العسكرى) الذى يدعى « أيمتسو » يحتضر سنة ١٦٥١ ، ذكر كبير وزرائه « هتو » بواجبه فى أداء الـ « جنشى » (أى اللحاق بسيد بعد موته فقتل « هتو » نفسه دون أن ينبس ببنت شفة ، ونسج على منواله كثير من الأتباع[١٥] ولما صعد « الإمبراطور ميسو هيتو » إلى أسلافه سنة ١٩١٢ انتحر الجنرال « نوجى » وزوجته ولاء منهما للإمبراطور[١٦] فلست ترى من التقاليد عند سائر الشعوب بما فى ذلك تقاليد روما التى كانت تخرج جنوداً من الطراز الأول ، ما بث شجاعة أبسل ، أو زهداً أصرم ،

http://nj180degree.com

أو ضبطاً للنفس أقوى مما كانت تقتضيه تقاليد هؤلاء « السيافين » من أعضاء تلك الفئة التى تعرف عندهم باسم « ساموراى » ؟

وآخر القوانين فى تشريع « بوشيدو » (أى تشريع طائفة السيافين) هو قانون « هاراكيرى » — ومعناها الانتحار بإخراج الأمعاء ؛ ولا تكاد الظروف التى تقتضى من السياف أن ينتحر على هذا الوجه تقع تحت حصر فقد كان الأمر من كثرة الوقوع بحيث لا يكاد يستوقف النظر ؛ فإذا حكم بالموت على رجل من ذوى المكانة الاجتماعية ، سمح له — إذا أراد الإمبراطور أن يدل على تقديره له — بأن يبقر بطنه بنفسه من اليسار إلى اليمين ، ثم يشقها إلى أسفل ، مستخدماً فى ذلك سيفه الصغير الذى كان الواحد منهم لا ينفك مصطحباً له من أجل هذه الغاية ؛ وإذا هزم أحدهم فى القتال ، أو اضطر إلى الاستسلام لعدوه ، كان الاحتمال بأن يبقر بطنه بيده معادلا تماماً لاحتمال أن يأبى على نفسه ذلك (فكلمة « هاراكيرى » معناها شق البطن ، وهى كلمة سوقية قلما ينطق بها اليابانى ، إذ هم يفضلون كلمة « سپپوكو ») فقد حدث أن خضعت اليابان سنة ١٨٩٥ لضغط الدول الأوربية فى إخلاء «لياوتنج» فارتكب أربعون رجلا من العسكريين « هاراكيرى » احتجاجاً ؛ كذلك حدث فى حرب سنة ١٩٠٥ أن أزهق عدد كبير من الضباط والجنود اليابانيين نفوسهم على هذا النحو ، فذلك عندهم خير من الوقوع فى أسر الروس ، وإذا لقى الرجل من فئة « الساموراى » (السيافين) إساءة من سيده ، فإنه — إن كان سيافاً أصيلا — يهلك حياة نفسه عند باب ذلك السيد ؛ وكان فن « السپپوكو » (أى بقر البطن انتحاراً) — وهو ذو أوضاع دقيقة بمثابة الطقوس الدينية . فى طليعة ما يلقن للشاب من فئة « الساموراى » ، وآخر علامات المودة التى يبديها الصديق لصديقه أن يقف إلى جانبه ليجز له رأسه فيفصلها عن جسده ، بعد أن يكون ذلك الصديق قد بقر بطن نفسه بيده[١٢] ؛ من هذا التدريب وما أحاط به من

j180degree.com

تقاليد نشأ ما يتصف به الجندى اليابانى من عدم الخوف من الموت(*) .

كذلك كان يسمح بالاغتيال — كما كان يسمح بالانتحار — فى ظروف معينة أن يحل محل القانون ؛ فاليابان فى نظامها الإقطاعى كانت تقتر فى الإنفاق على رجال الشرطة ، بوسائل كثيرة منها أن تجيز لابن القتيل أو أخيه أن يثأر لنفسه بدل الالتجاء إلى القانون ؛ ولقد أدى هذا الاعتراف بحق الثأر — إلى جانب إيحائه بنصف القصص والمسرحيات فى الأدب اليابانى — إلى الحيلولة دون كثير من الجرائم ؛ ومع ذلك فالرجل من فئة « الساموراى » (أى السيافين) كان يحس عادة أن واجبه يقتضيه ارتكاب (الهاراكيرى) بعد استخدامه لحقه فى الثأر بنفسه من عدوه ؛ مثال ذلك ما فعله « الرونانات » الأربعون المشهورون وهم فئة من السيافين لم يكونوا أعضاء رسميين فى تلك الطائفة (حين تأثروا من « كوتسوكى » لما ارتكبه من قتل اغتيالى ، فعلوا ذلك وهم يصطنعون له غاية الرقة ويقدمون له المعاذير ، ثم انسحبوا فى وقار إلى ضيعات عينها لهم « الحاكم العسكرى » وقتلوا أنفسهم قتلا التزموا فيه غاية الثبات (كان ذلك سنة ١٧٠٣) ، وأعاد الكهنة رأس « كوتسوكى » إلى رئيس حاشيته ، فأخذ منهم الرأس وأعطاهم هذا الإيصال البسيط :

مذكرة :

١ رأس واحد .

(*) كانت الـ « هاراكيرى » محرمة على النساء والسوقة ، لكن كان يسمح للنساء أن يرتكبن ما يسمى « چيچاكى » — ومعناها أن يؤذن لهن — احتجاجاً على ما يصيبهن من إساءة — أن يخترمن من رقابهن بالخناجر ، وأن يقطعن الشرايين بضربة واحدة ؛ فكانت كل امرأة لها مكانة اجتماعية تلقى تدريباً فى عملية جز الرقبة ، ويعلمونها كيف تربط ساقيها قبل قتلها نفسها ، خشية أن تقع الأبصار على جثتها وهى فى وضع لا يتفق مع ما تقتضيه العفة(١٨) .

http://nj180degree.com

٢ ــ حزمة ورقية واحدة .

تسلمت الشيئين المذكورين أعلاه .

(توقيع) سايارا موجوباى

سايتو كوناى

ولعل هذه الحادثة أن تكون أشهر حادثة فى تاريخ اليابان كله وأصدقها تمثيلا لليابانيين ، وهى من أدل الحادثات تصويراً للخلق اليابانى إذا أردت أن تفهمه ؛ والذين اقترفوا ذلك الفعل ، ما يزالون ــ فى أعين الشعب ــ أبطالا وقديسين ؛ وإلى يومنا هذا ما يزال الأتقياء يزخرفون قبور أولئك النفر ، ولا ينقطع البخور عن مثواهم(١٩) .

ولما دنا عهد وصاية « أبياسو » على العرش من ختامه ، نهض شقيقان ، هما « ساكون » و « نايكى » ، وعمر الأول منهما إذ ذاك أربعة وعشرون ، وعمر الثانى سبعة عشر ، وحاولا أن يقتلاه لما أنزله بأبيهما من مظالم ــ فى رأيهما ــ فوقعا فى قبضة الحراس ساعة دخولهما فى المعسكر ، وحكم عليهما بالموت ؛ لكن « أبياسو » تأثر بما أبدياه من شجاعة ، وخفف عنهما حكم الإعدام بحيث أصبح أن يتركا ليقتلا نفسيهما على الطريقة المألوفة فى إخراج المرء لأمعاء نفسه ؛ ثم قضى كذلك ــ مراعاة لعادات عصره ــ أن يشمل هذا القرار الرحيم أخاهما الأصغر « هاشيارو » وقد كان فى الثامنة من عمره ؛ وقد خلف الطبيب الذى كلف بملاحظة هؤلاء الصبية فى قتل أنفسهم ، وصفاً لما رأى ، فيما يلى :

لما أجلسوا جميعاً فى صف ليرحلوا عن هذا العالم رحلة لا أوبة بعدها ، التفت « ساكون » إلى الأخ الأصغر قائلا : « اذهب أنت أولا ، لأنى أود أن أستيقن من أنك تؤدى الأمر على وضعه الصحيح » فلما أجاب الصغير بأنه لم يشهد قط عملية الـ « سپُولكو » من قبل فإنه يجب أن يرى أخويه وهما يؤديانها ، حتى يستطيع بعدئذ أن يحذو حذوهما ، فابتسم أخواه الأكبران

j180degree.com

وعيناهما تدمعان ، وقالا : « لقد أصبت أيها الأخ الصغير ، ويحق لك الآن أن تفخر بأنك ابن أبيك » ؛ ولما وضعاه بينهما ، طعن « ساكون » خنجره فى الجانب الأيسر من بطنه وقال : « انظر ، أخى ، أتفهم الآن ؟ والذى ينبغى أن تراعيه هو ألا تضرب الخنجر عميقاً حتى لا يطرحك على الأرض ، بل كن أميل بجسدك إلى الأمام ، واجعل ركبتيك فى وضع ثابت » . وفعل « نايكى » ما فعله « ساكون » وقال للصبى : « افتح عينيك خشية أن تبدو كالمرأة وهى تحتضر ، وإذا أحسست أن شيئاً فى جوفك يعوق إخراج خنجرك ، وأن قواك تخور ، فاجمع شجاعتك وضاعف جهدك فى شد خنجرك جانباً لتقطع به البطن قطعاً أفقياً » فنظر الصبى إلى أخيه عن يمينه وإلى أخيه عن يساره ، حتى إذا ما رآهما قد أسلما الروح ، خلع ثيابه هادئاً عن نصف جسده ، واحتذى حذو ما يراه عن يمينه وعن يساره »[٢٠] .

http://nj180degree.com

الفصل الثانى

القانون

التشريع الأول – المسئولية الجمعية – العقاب

كان التشريع القانونى فى اليابان مكملا عنيفاً لما كان يتم بالاغتيال وبالثأر وقد استمد ذلك التشريع بعض أصوله من تقاليد الشعب القديمة ، كما استمد بعضها الآخر من التشريعات الصينية فى القرن السابع ، ذلك أن القانون قد صحب الدين فى هجرة الثقافة من الصين إلى اليابان[٢١] ، وبدأ « تنشى تينو » صياغة مجموعة من القوانين ، كملت وأذيعت فى عهد الإمبراطور اليافع « مومو » عام ٧٠٢ ، لكن هذا التشريع وغيره من تشريعات العصر الإمبراطورى ، أهملت فى العصر الإقطاعى ، إذ جعل كل حاكم إقطاعى يسن لنفسه ما شاء من تشريع مستقلاعن سائر المقاطعات . ولم يعترف الرجل من طبقة « السيافين » بقانون إلا ما يريده وما يأمر به مولاه[٢٢] .

وكانت العادة فى اليابان حتى سنة ١٧٢١ أن تكون الأسرة كلها مسئولة عن كل فرد من أفرادها ، فتضمن حسن سلوكه ؛ وكذلك كانت الأسرة الواحدة — فى معظم الأقاليم — توضع فى مجموعة من خمس أسرات ، تكون كل منها مسئولة عن سائر أفراد المجموعة ، فالرجل إذا حكم عليه بالصلب أو بالحرق ، قضى كذلك بالموت على أبنائه الكبار ، وبالنفى على أبنائه الصغار عندما يبلغون الرشد[٢٣] ، وكان نظام المحنة متبعاً فى التحقيق على نحو ما كان متبعاً فى العصور الوسطى ، ولبث التعذيب شائعاً — فى صوره الخفيفة — حتى هذا العصر الحديث واصطنع اليابانيون من وسائل التعذيب إزاء المسيحيين ؛ ناسجين على منوال محاكم التفتيش نسجاً فيه انتقام لما أنزله المسيحيون أنفسهم

j180degree.com

بأنفسهم فى تلك المحاكم ، لكنهم كثيراً ما كانوا أدق فى وسائلهم التعذيبية . فيربطون الرجل بحبال فى وضع وثيق . يزيد المربوط ألماً كلما مرت به لحظات الزمن لحظة بعد لحظة[٢٤] ، وكثيراً ما كانوا يلجأون إلى الضرب بالسياط لأتفه الأخطاء ، وكان الإعدام لديهم عقوبة على كثير جداً من أنواع الجرائم ، وجاء الإمبراطور شومو (٧٢٤ — ٥٦) فألغى عقوبة الإعدام وجعل الرحمة أساس حكمه ، لكن الإجرام زادت نسبته بعد موته ، حتى لم يقتصر الإمبراطور « كوشين » (٧٧٠ — ٨١) على إرجاع عقوبة الإعدام بل أضاف إلى ذلك أنه أمر بأن يضرب اللصوص بالسياط علناً حتى يلفظوا الروح[٢٥] ، وكانوا ينفذون الإعدام بالخنق وجز الرأس والصلب وقطع الجسد أربعة أرباع والحرق أو الغلى فى الزيت[٢٦] ، وكان « أبياسو » قد ألغى العادة التى تقضى بأن يمزق المتهم نصفين بشده بين ثورين ، كما ألغى العادة التى تقضى بأن يربط المتهم فى عمود وسط الملأ ، ثم يطلب من كل مار أن يأخذ نصيبه فى تقطيع جسده بمنشار ينشره من كتفه فأسفل[٢٧] ، وكان من رأى « أبياسو » أن كثرة الالتجاء إلى العقوبات الصارمة لا تدل على إجرام الشعب بمقدار ما تدل على فساد الموظفين وعجزهم[٢٨] ، وكم ساء « يوشيمونى » أن يجد سجون عصره بغير استعدادات صحية ، وأن بين المسجونين فئة بدأت محاكماتها منذ ست عشرة ســـنة ولم تنته بعد ، حتى لقد نسيت الاتهامات الموجهة إليهم ، ومات الشهود[٢٩] ، وأخذ هذا الحاكم العسكرى الذى كان أكثر هذه الطائفة استنارة فى إصلاح السجون ، وعمل على السرعة فى الإجراءات القضائية ، وألغى المسئولية الأسرية ، وواصل العمل المضنى بغية أن يصوغ أول تشريع موحد للقانون الإقطاعى فى اليابان (١٧٢٩) .

http://nj180degree.com

الفصل الثالث

العمـــال

نظام الطبقات — تجربة فى تأميم الأراضى — تحديد الدولة للأجور — مجاعة — الصناعات اليدوية — الصناع والنقابات

انقسمت الجماعة فى العصر الإمبراطورى ثمانى طبقات ، ثم زالت بعض الفوارق فى العهد الإقطاعى بحيث أصبحت تلك الطبقات أربعاً : الساموراى (أى السيافون) والصناع والفلاحون والتجار — والطبقة الأخيرة هى كذلك أخيرة فى الترتيب الاجتماعى ، ويأتى تحت هذه الطبقات جمع غفير من العبيد فتبلغ نسبتهم ما يقرب من خمسة فى كل مائة من السكان ، وقوامهم المجرمون وأسرى الحرب والأطفال المخطوفون الذين باعهم خاطفوهم ، وكذلك الأطفال الذين باعهم آباؤهم عبيداً فى الأسواق(*)(٣٠) ويأتى دون هؤلاء العبيد أنفسهم فى المنزلة الاجتماعية ، طبقة من المنبوذين يسمونهم « إيتا » ، يعدهم بوذيو اليابان منبوذين نجســين لأنهم يشتغلون بالجزارة أو بالدباغة أو بحمل القمامة(٣٢) .

والأكثرية العظمى من السكان (الذين بلغ عددهم فى أيام يوشيمونى عدداً يقرب من ثلاثين مليوناً) كانت تتألف من صغار ملاك الأراضى الذين يزرعون أرضهم زراعة مركزة ، وهى مساحة تبلغ ثمن التربة اليابانية الجبلية التى تسمح للمحراث أن يشق جوفها(**) ، وحدث فى عصر « نارا » أن أممت الدولة الأراضى الزراعية ، وأجرتها للفلاحين مدى ست سنوات ، أو مدى حياة الفلاح على أكثر تقدير ؛ لكن الحكومة سرعان ما تبينت أن الناس

(*) حرم هذا على الآباء سنة ١٦٩٩(٣١)

(**) الأجزاء القليلة الصالحة للزراعة كانت — ولا تزال — تسمد بالفضلات البشرية .

j180degree.com

لم يعنهم أن يصلحوا الأرض أو أن يحرصوا عليها حرصاً حقيقياً ما دام من الجائز أن تؤول إلى سواهم بعد حين قصير ، وانتهت التجربة بالعودة إلى الملكية الخاصة ، مع مد الحكومة الفلاحين بالمال فى فصل الربيع ليتمكن الفلاحون من سد نفقات البذر والحصاد(٣٣) ، ومع هذه المعونة المالية لم تكن حياة الفلاح على درجة من اليسر تحلل قواه ، فلا تزيد مزرعته على شريحة ضئيلة من الأرض ، لأن الميل المربع — حتى فى ذلك العهد الإقطاعى — كان مورد رزق لألفى رجل(٣٤) وكان على الفلاح أن يسخر فى عمل للدولة مدى ثلاثين يوماً كل عام ، كان من الجائز خلالها أن يلاقى حتفه بطعنة رمح عقاباً له على لحظة واحدة تراخى فيها عن العمل(*)(٣٥) وكانت تقتضيه الحكومة ستة فى المائة من محصوله ضريبة وغيرها من القروض ، كان ذلك فى القرن السابع ، أما فى القرن الثانى عشر ، فكانت تقتضيه سبعة فى المائة ، وأربعين فى المائة فى القرن التاسع عشر(٣٧) ، وكانت آلاته الزراعية غاية فى بساطتها ، وثيابه هلاهيل خفيفة فى الشتاء ، وهو فى العادة لا يلبس شيئاً قط فى الصيف ، وكل أساسه فى المنزل قدر للأرز وقليل من الأقداح وبضعة ملاعق خشبية ، وداره من الضآلة بحيث يكفى نصف أسبوع لبنائها(٣٨) ذلك لأن الزلازل تحطم له كوخه حيناً بعد حين ، أو تقضى عليه المجاعة ، وإذا عمل أجيراً عند رجل آخر ، حددت له الحكومة — فى عهد توكوجاوا — ما يستحق من أجر(٣٩) لكن تحديد الحكومة للأجور لم يمنع هبوطها هبوطاً فظيعاً ؛ وتجد فى كتاب لـ « هوكوكى » وهو من أشهر كتب الأدب اليابانى — وصفاً لطائفة من الكوارث

(*) كان يسمح لهم خلال شهرى يوليو وأغسطس أن يقيلوا فى الظهيرة من منتصف النهار إلى الساعة الرابعة ؛ وكانت الدولة تقوم على إطعام العمال المرضى ، وعليها كذلك أن تعد الأكفان لمن يموت إبان السخرة(٣٦) .

http://nj180degree.com

اجتمعت كلها فى الثمانية الأعوام — ما بين ١١٧٧ و ١١٨٥ — فزلزال ومجاعة وحريق كاد يأتى على كيوتو كلها(*) ووصفه لما شاهده بعينه من مجاعة سنة ١١٨١ يعد مثلا من أجمل ما فى النثر اليابانى :

« حدث فى أرجاء البلاد جميعاً أن غادر الناس أراضيهم بحثاً عن سواها ، أو نسوا ديارهم وذهبوا إلى التلال يتخذون فى شعابها مسكناً ؛ ولهجت الألسنة بكل ضروب الدعاء ، وأدى الناس كل ألوان الشعائر الدينية التى لم تكن مألوفة فى الأيام العادية ، إذ أعادوها من جديد ، كل ذلك فعلوه بغير ما جدوى ...

وأبدى سكان العاصمة استعدادهم لتضحية كل ما يملكون من نفائس من شتى الضروب ، نفيساً فى إثر نفيس (من أجل القوت) لكن لم يأبه لتلك النفائس أحد عندئذ . . . واحتشد السائلون الإحسان جماعات على جوانب الطريق ، وامتلأت آذاننا بأصوات أنينهم الباكى . . . كان الناس جميعاً يموتون من جوع ، وكلما تقدمت بنا الأيام ازددنا يأساً حتى لقد أشبهنا ما تروى عنه القصة من سملك البركة ؛ وانتهى الأمر حتى بأولئك الذين توحى سيماهم بالاحترام ، والذين يرتدون القبعات ويغطون الأقدام ، انتهى الأمر حتى بأولئك الناس إلى الإلحاف فى سؤال الإحسان من باب إلى باب ، وكان يحدث أحياناً أن يأخذك العجب كيف يستطيع هؤلاء الذين بلغت بهم تعاسة الحال كل هذا الحد أن يمشوا على أقدامهم ، وإذ بك تراهم يسقطون أمام عينيك إعياء ، فمات عدد لا يحصى من المجاعة ، وكانوا يلفظون أرواحهم بجوار أسوار الحدائق أو إلى جوانب الطرقات ؛ ولما كانت أجسادهم لا تجد من يزيلها من أماكنها ، فقد امتلأ الهواء بالرائحة النتنة ؛ حتى إذا ما أخذ التغير يطرأ

(*) ابشع ما شهدته اليابان فى تاريخها من حرائق — وهى فى تاريخها كثيرة — هى تلك التى محت ييدو (طوكيو) محواً تاماً سنة ١٦٥٧ ، وتمضت على مائة ألف نفس بشرية .

j180degree.com

يطرأ على أجسادهم ، نشأت مشاهد لا تستطيع العين أن تراها ... ومن لم يكن له كسب يشترى به القوت ، هدم داره ليبيع أجزاءها فى السوق ، وقيل إن الحمل يحمله الرجل بكل طاقته ، لم يكن ثمنه ليكفى سد رمقه يوماً واحداً » والعجب أنك كنت ترى فى هذا الحطام من أخشاب المنازل ، الذى كانوا يبيعونه وقوداً للنار ، قطعاً مزدانة فى بعض أجزائها بالألوان أو بالفضة أو بطلاء الذهب .. وشىء آخر يستثير فى النفس أشد أحزانها ، وهو أنه إذا كان ثمة رجل وامرأة يربط بينهما رباط الحب الشديد ، فالذى كان منهما أقوى حباً من الآخر ، وأعمق ولاء ، يموت قبل زميله ؛ وعلة ذلك أن الواحد منهما يؤثر غيره على نفسه ، فالذى يشتد حبه يقدم لمحبوبه — رجلا كان أو امرأة — أى شىء يطلبه منه ، فكان الوالدون بطبيعة الحال يموتون قبل أبنائهم ؛ كذلك كنت ترى الرضع أحياناً عالقين بأثداء أمهاتهم ، لا يعرفون أن هؤلاء الأمهات قدفاضت أرواحهن ... وبلغ عدد الموتى فى كيوتو الوسطى خلال الشهرين الرابع والخامس وحدهما ٤٢٫٣٠٠ من الأنفس البشرية »(٤٠) .

قارن هذه الفترة الفظيعة التى تخللت مجرى الزراعة ، بالصورة التى يقدمها لنا « كيمفر » ساطعة عن الصناعات اليدوية فى اليابان كما رآها فى كيوتو سنة ١٦٩١ .

« كيوتو هى المستودع العظيم الذى تخزن فيه كل المنسوجات والسلع اليابانية ، وهى المركز التجارى الرئيسى فى الإمبراطورية ؛ فتكاد لا تجد فى هذه العاصمة الكبرى منزلا واحداً لا يصنع فيه شىء أو يباع شىء ؛ فالناس هاهنا يُصفّون النحاس ويسكون النقود ويطبعون الكتب ويطرزون افخر المنسوجات بزهور الذهب والفضة ؛ وهاهنا كذلك تصنع أحسن صنوف الصبغة وأندرها ، وأروع النقوش فناً ، وكل ضروب الآلات الموسيقية والصور والخزانات اليابانية ، وشتى الأشياء التى تصاغ من الذهب وغيره من المعادن ، وخصوصاً

http://nj180degree.com

الصلب ؛ مثال ذلك السيوف ذوات النصل القوى وغيرها من الأسلحة ؛ كل ذلك يصنع هاهنا صناعة بلغت غاية الكمال ، كما تصنع أفخر الأردية على خير طراز ، وكل صنوف اللعب ونماذج الحيوان التى تحرك رؤوسها من تلقاء نفسها وأشياء أخرى أكثر عدداً من أن يحصرها العدد فى هذا المكان ؛ واختصاراً لست تستطيع أن تفكر فى شىء مما لا تراه يصنع فى كيوتو — وليس هنالك شىء مما يستورد من خارج البلاد — مهما بلغت دقة صناعته — مما لا تجد بين صناع العاصمة من يأخذ على نفسه أن يحاكيه ... إنه ليس فى المنازل التى تقع فى الشوارع الرئيسية إلا قلة لا تعرض شيئاً للبيع ؛ ولم يسعنى إلا العجب أنى لهؤلاء الناس الزبائن لشراء هذه المقادير الهائلة من البضائع ؟ »[٤١] .

لقد استوردت اليابان قبل ذلك بزمن طويل كل فنون الصين وصناعاتها ؛ وكما ترى اليابان اليوم قد بدأت تفوق معلميها من أهل الغرب فى الاقتصاد والمقدرة على الإنتاج الآلى[٤٢] ، فكذلك حدث فى أثناء حكومة توكوجاوا العسكرية ، إذ أخذ صناعها ينافسون ، بل وأحياناً يفوقون زملاءهم من أهل الصين وكورية الذين علموهم الصناعة ؛ وكانت معظم الصناعة تقوم بها الأسرة فى الدار — كما كانت الحال فى أوربا فى عصرها الوسيط — وكانت الأسرة تورث صناعتها ومهارتها من الوالد إلى ولده ، وكثيرا ما أطلق على الأسرة اسم الصناعة التى كانت تقوم بها ؛ وكذلك — كما كانت الحالة أيضاً فى أوربا فى عصرها الوسيط — تألفت نقابات كبرى ، لم يكن قوامها الصفوف الدنيا من الصناع بقدر ما كان قوامها السادة الذين كانوا يستغلون الصناع استغلالا لا يعرف الرحمة ، وحددوا حق الالتحاق بهذه النقابات للأعضاء الجدد بقيود أسرفوا فى ضيقها[٤٣] ؛ وكانت نقابة الصيارفة من أقوى النقابات ، الصيارفة الذين كانوا يقبلون الودائع والتحويلات الماليـــة « والكمبيالات » ويقرضون القائمين على التجارة والصناعة والحكومة ؛ وما جاءت سنة ١٦٣٦

j180degree.com

حتى كانوا يؤدون كل العمليات المالية الكبرى (٤٤) وأصبح التجار الأغنياء والممولون من أعلام أهل المدن ، وأخذوا ينظرون بعين الحسد إلى السلطة السياسية التى كانت مقصورة على السادة الإقطاعيين الذين أثاروا فى صدورهم الشحناء باحتقارهم السعى وراء الذهب ؛ وأخذت الثروة التجارية تزداد شيئاً فشيئاً خلال عصر « توكوجاوا » حتى استطاعت آخر الأمر أن تتآزر مع المواهب الأمريكية والمدافع الأوروبية على تحطيم القشرة المتحجرة فوق اليابان القديمة .

http://nj180degree.com

الفصل الرابع

الشعب

قوام أجسادهم — عجائن الزينة — الثياب — الطعام — آداب المعاملة — « سيك » — احتفال الشاى — احتفال الزهور — حب الطبيعة — الحدائق — المنازل

إن الشعب الذى يحتل أعلى مكانة فى العالم السياسى المعاصر يتألف من أفراد قصار القامة ، إذ يبلغ متوسط قامة الرجل منهم خمسة أقدام وثلاث بوصات ونصف البوصة ، ويبلغ متوسط قامة المرأة أربعة أقدام وعشر بوصات ونصف البوصة ؛ وقد جاءنا وصف لرجل هو من أعظم جنودهم ، أعنى « تامورامارو » ، بأنه « رجل جميل القوام إلى حد بعيد ... طوله خمس أقدام وخمس بوصات »(٤٥) ويذهب بعض علماء التغذية إلى أن هذا القصر فى القامة يرجع إلى قلة الجير فى الغذاء اليابانى ، وهذه القلة بدورها راجعة إلى قلة اللبن ؛ وقلة اللبن سببها ارتفاع أثمان أراضى الرعى فى مثل هذه البلاد الغاصة بأهلها(٤٦) ، لكنا لا ينبغى أن نعد هذه النظرية أكثر من فرض بعيد الاحتمال — شأنها فى ذلك شأن كل ما يقال فى العلم الذى يحلل غذاء الإنسان ؛ ويبدو على النساء هناك ضعف وهزال ، فالظاهر أن ما لهن من نشاط — وهن فى ذلك كالرجال فى نشاطهم هناك — يرجع إلى قوة الجهاز العصبى أكثر مما يرجع إلى القوة البدنية ؛ ولست ترى علائم النشاط بادية إلا إذا دعت إليه ضرورات الحياة ؛ ولهن جمال هو جمال التعبير الذى تنطق به وجوههن ، وجمال المشية ، وجمال القسمات ؛ فهذه الرشاقة اللطيفة التى تراها فيهن مثل جميل لما قد أدى إليه الفن فى بلادهن .

ومعاجين الزينة شائعة فى اليابان وقديمة العهد فيها ؛ كما هى الحال فى

j180degree.com

سائر الأقطار . فترى الرجل منهم — حتى فى العصر القديم الذى بسط فيه «كيوتو» زعامته على البلاد — ترى الرجل منهم إذا ما كان ذا منزلة اجتماعية ، يُحَمِّرُ وجنتيه ، ويضع المساحيق على وجهه ، ويعطر ثيابه ، ويحمل معه مرآة من ذهب(٤٧) ، وكذلك لبث نساؤهم قروناً طوالا لا ترى وجوههن إلا مغطاة بالمساحيق ، وفى ذلك تقول « السيدة سى شرناجون » فى كتابها : « صور على الوسادة » (حوالى ٩٩٤ ميلادية) مصطنعة الحشمة فى قولها : « حَنَيْتُ رأسى فأخفيت وجهى بكمى ، مخاطرة فى ذلك بما قد يحدثه الكم من إزالة المسحوق عن وجهى فيبدو مُبَقَّعاً » (٤٨) فقد كان سيدات البلاط يحَمِّرْن خدودهن ويطلين أظفارهن . وَيُذَهِّبْنَ أحياناً سيقانهن السفلى ، فزينة المرأة فى القرن السابع عشر لم تكمل بأقل من ستة عشر صنفا ، وهى فى القرن الثامن عشر قد بلغت العشرين صنفاً ؛ وعرَف النساء خمسة عشر طرازاً لتصفيف الشعر الأمامى ، واثنى عشر طرازاً للشعر الخلفى ، وكن يحلقن حواجبهن ، ويرسمن مكانها أهلَّةً أو غيرها من الرسوم ؛ أو كن يضعن بدل الحواجب نقطتين سوداوين صغيرتين فى أعلى الجبهة ، لكى يحدثن بهما تناسقاً مع الأسنان التى كن يُسَوِّدْنها صناعة ، وكان تصفيف الشعر للمرأة عملا يستغرق ساعتين إلى ست ساعات إن كان القائم بالتصفيف خبيراً بنفنه ؛ وكان معظم الرجال فى عصر « هاى » يحلقون مقدمات رءوسهم ، ويجمعون ما تبقى من الشعر ضفيرة يمدونها وسط ذلك الجزء الأمامى الحليق ، ليقسموه بها نصفين ، وكانت اللحى ضرورة للرجال ، رغم قلة شعراتها ؛ ومن لم يكن لهم لحى بطبيعتهم ، كانوا يضعون على وجوههم لحى صناعية ، وكان يقدم للضيف فى بيوت العلْية ملقط يسوّى به لحيته(٤٩)

كانت الثياب اليابانية فى عصر « نارا » تقتفى أثر الثياب الصينية فصدار وسراويل يغطيها ثوب محبوك على الجسم ، فلما جاء عصر « كيوتو » وسع اليابانيون من ذلك الثوب بعض الشىء وزادوا من أجزائه ، فالرجال والنساء

http://nj180degree.com

كانوا يلبسون أثواباً بعضها فوق بعض يتراوح عددها من ثوبين إلى عشرين . وتختلف ألوان تلك الثياب باختلاف مكانة اللابس ، وكانت تبدو أطرافها عند الكم متعددة الألوان كأنها الطيف فى تداخل ألوانه ؛ وجاء عهد كانت أكمام السيدة تتدلى إلى ما دون ركبتيها ، وفى طرفها جرس يُتَنْتِنُ وهى تسير ، وإذا كانت الطرقات مبتلة بالمطر أو بالثلج ، كن يمشين على قباقيب من الخشب محمولة على كعوب خشبية يرتفع حول بوصة عن الأرض ، وفى عصر « توكوجاورا » بلغ الإسراف فى الثياب حداً جعل « السيافين » لا يعبأون بتقاليد الناس ، ويحاولون الحد من هذا الإسراف بقوانين صارمة ، فحرقت السراويل المبطنة بالحرير والموشاة كما حرقت الجوارب التى كانت تزخرف على ذلك النحو ، وحرمت اللحى ، وصنوف معينة من تصفيف الشعر ، جاءت أيام كان رجال الشرطة فيها يؤمرون بالقبض على كل من يرونه فى الطريق مرتدياً ثوباً فاخراً ، وكان الناس يطيعون هذه القوانين أحياناً ، لكنهم فى معظم الأحيان كانوا يحتالون على التخلص منها بما عرف عن الإنسان من حماقة فطرية(٥٠) .

لكن هذا الشغف الشديد بتعدد الأردية قد خفت حدته على مر الزمن ، وأصبح اليابانيون من أكثر شعوب الأرض بساطة واحتشاماً وحسن ذوق .

ولم يكن اليابانيون ليأخذوا عن سواهم من الشعوب شيئاً فيما يخص عادات النظافة ، فالثياب تغير ثلاث مرات فى اليوم الواحد عند من يستطيع إلى ذلك سبيلا ، والناس جميعاً فقيرهم وغنيهم يستحمون كل يوم(٥١)(*) .

وأما فى القرى ، فكان الناس يستحمون فى طسوت خارج منازلهم فى

(*) كان فى طوكيو سنة ١٩٠٥ ألف ومائة حمام شعبى ، يستحم فيها كل يوم نصف مليون رجل ، لقاء أجر قيمته سنت وربع سنت(٥٢) .

j180degree.com

الصيف ، ويثرثر الجار مع جاره إذ هما يستحمان ثرثرة لا تنقطع[٥٢] ، وكانوا يستحمون فى الشتاء بماء ساخن مبلغ حرارته مائة وعشر درجات ، فيكون لهم ذلك وسيلة تدفئة من البرد ، وكان غذاؤهم بسيطاً وصحياً قبل أن تطغى عليهم موجة الترف ؛ ووصف الصينيون اليابانيين فى الزمن القديم فقالوا عنهم إنهم « شعب طويل العمر ، حتى ليكثر فيه الأفراد الذين يبلغون فى أعمارهم مائة عام » .

وكان الطعام الرئيسى عند الشعب هو الأرز ، يضيفون إليه السمك والخضر ونبات البحر والفاكهة واللحم ، كل بنسبة ثرائه ، وكان اللحم لونا من الطعام نادراً إلا بين الطبقة العالية وطبقة الجنود ، وكان العامل الياباني يفضل هذا الطعام الذى يتألف من أرز وسمك ولا لحم ، يتمتع برئتين سليمتين وعضلات قوية ، فيستطيع الجرى من خمسين ميلا إلى ثمانين فى أربع وعشرين ساعة دون أن يشكو إعياء . فإذا ما أضاف اللحم إلى غذائه ، فقد قدرته هذه على الجرى السريع(*) وحاول الأباطرة فى عصر كيوتو محاولة دينية قصدوا بها أن يؤيدوا قوانين التغذية كما تأخذ بها البوذية ، فحرموا ذبح الحيوان وأكله ، ولكن لما رأى الناس أن الكهنة أنفسهم كانوا يخرجون على تلك القوانين خفية ، أخذوا يدخلون اللحم لوناً شهياً من الطعام ، ويسرفون فى أكله كلما مكنتهم من ذلك قدرتهم المالية[٥٧] .

فاليابانيون — كالصينيين والفرنسيين — يعدون إجادة الطهى علامة جوهرية للحضارة ، حتى لقد أخذ الطهاة — كأنهم فى ذلك فنانون أو فلاسفة — ينقسمون مدارس يناهض بعضها بعضاً بما تبدع كل منها من « وصفات » ؛

(*) لكنا نلاحظ من جهة أخرى أن اليابانيين الذين لم يكونوا يعملون بأجسادهم ، وكانوا يعيشون على كميات كبيرة من الأرز ، كانوا يتعرضون لاضطرابات فى الهضم[٥٦] .

http://nj180degree.com

وأصبحت آداب المائدة عندهم من الأهمية بحيث عادلت أهمية الدين على أقل تقدير ، إذ كان لهم قواعد دقيقة تنظم ترتيب القضمات ومقاديرها ، كما تنظم وضع الجسم فى كل مرحلة من مراحل الوجبة ، ولم يكن يجوز للسيدات أن تحدثن صوتاً فى الطعام أو الشراب ، أما الرجال فقد كانت تقتضيهم الأوضاع أن يدلوا على تقديرهم لكرم المضيف بجشئات عدة يظهرون بها عرفانهم بالجميل(٥٨) ، وكان الآكلون يجلسون على عقب واحد أو على العقبين فوق حصير ، إزاء مائدة لا تعلو عن الأرض أكثر من بضع بوصات ، أو قد يوضع الطعام على الحصير بغير حاجة إلى مائدة على الإطلاق ، والعادة أن تبدأ الوجبة بشراب ساخن من عصير الأرز ، ألم يعلن الشاعر « تاهيتو » فى زمن بالغ فى القدم مبلغ القرن السابع ، بأن شراب « الساكى » هو الحل الوحيد الذى تفض به مشكلات الحياة جميعاً ؟

إن ما كان ينشده السبعة الحكماء
أولئك الرجال الذين قدم بهم الزمان
هو — بغير شك — شراب « الساكى »
فبدل أن تجلس ساكتاً
مفكراً ، جاداً ، صنماً
فخير ألف مرة أن تشرب « الساكى »
وأن تسكر به حتى تصيح صياحاً عالياً
فما دام الواقع الحق
هو أن الموت لاحق بنا جميعاً
فلنمرح
ما دمنا على قيد الحياة
إن اللؤلؤة التى تتألق ببريقها فى الليل

j180degree.com

أقل قيمة للإنسان من نشوة قلبه

التى تأتيه إذا ما شرب « الساكى »[٥٩]

لكن الشاى كان أكثر قدسية عند العلّية من « الساكى » . فهذا النبات العجيب الذى نتغلب به على ما يفقده الماء من طعمه بعد الغلى ، جاء إلى اليابان قادماً من الصين سنة ٨٠٥ ، لكنه إذ ذاك لم يصب نجاحاً ، ثم جاءها مرة أخرى سنة ١١٩١ حيث استقر بها وأقام ، فقد اجتنبه الناس أول الأمر باعتباره سما لا ينبغى أن يقربوه ؛ ولكن لما تبين للرجل من طائفة « السيافين » أن قليلا من أقداح الشاى سرعان ما يرد إلى رأسه اتزانه بعد ما أصابه من دوار بسبب الإفراط فى شراب « الساكى » ليلة البارحة ، أخذ أهل اليابان يتبينون فائدة الشاى ، ولقد أضاف ارتفاع ثمنه إلى سحره سحراً جديداً ، فكان الناس يتهادون به ثمين الهدايا ، بأن يتبادلوا الآنية الخزفية المليئة به ، حتى لقد كان يُقدَّمُ للمقاتلين جزاء ما أبلوا فى أفعالهم الحربية الباسلة ، فكان الذى يجود من هؤلاء بحيث يظفر بمنحـــة من الشاى ، يجمع حوله الأصدقاء ليشاركوه هذا الشراب الملكى ، ولقد جعل اليابانيون من شرب الشاى احتفالا رشيقاً معقد الأوضاع ، إذ وضع « ركيو » لذلك ست قواعد لا يجوز الخروج عليها ، فارتفع شرب الشاى بفضل هذه القواعد الست إلى منزلة الطقوس الدينية ، فمن قواعد « ركيو » هذا أن الدعوة التى توجه إلى الأضياف ليدخلوا قاعة الشاى ، يجب أن تكون بالتصفيق بخشبتين معينتين كما يجب أن يظل إناء الوضوء مليئاً بالماء الصافى ، وإذا ما أحس ضيف من الأضياف بخطأ أو بنقص فى أثاث المكان ، وجب عليه أن يغادر من فوره دون أن يحدث بذلك ضجة ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، ولا يجوز أن يغوص الحاضرون فى حديث تافه ، بل يجب عليهم ألا يطرقوا بالحديث إلا أموراً عالية جادة ، ولا يجوز لأحد أن يفوه بكلمة واحدة مما يدل على غرور أو رياء ، ثم لا يصح أن يستغرق الأمر أكثر من أربع ساعات ،

http://nj180degree.com

ولم يكن يستعمل إبريق الشاى فى مثل هذه المحافل التى يطلق عليها « شا— نو— يو» (ومعناها ماء ساخن للشاى) ؛ بل كان يوضع مسحوق الشاى فى فنجان ممتاز فى نوعه ، ثم يصب فيه الماء الساخن ، ثم يدور الفنجان بين الأضياف واحداً بعد واحد ، كل منهم يمسح حافته مسحاً رقيقاً بمنشفة صغيرة ، حتى إذا ما شرب آخر الشاربين آخر جرعة من الفنجان ، أدير الفنجان بين الحاضرين من جديد ليفحصوه من الوجهة الفنية(٦٠) ، وعلى هذا النحو كان احتفال الشاى حافزاً للخزافين على إنتاج أقداح وآنية بالغة الجمال ، كما كان هذا الاحتفال عاملا على صياغة آداب اليابانيين فى صورتها الهادئة الفاتنة التى يراعى فيها تبادل الاحترام(*) .

كذلك أصبحت الزهور موضع قدسية فى اليابان ؛ فكانت موضع تقدير من « ركيو » هذا الذى صاغ طقوس محافل الشاى ، فكانت الزهور عنده تلقى من العناية ما تلقاه أقداح الشاى ، ولما سمع أن « هيديوشى » آت لزيارته ليرى مجموعته المشهورة من زهور الأقحوان ، أتى « ركيو » على كل الزهور فى بستانه إلا واحدة ، لعل هذه الواحدة تسطع فى عينى هذا « السياف » المخيف سطوعاً يدرك منه أنها فذة فى عالم الزهور(**)(٦٢) ؛ وأخذ فن تنسيق الزهور يتقدم خطوة بعد خطوة مع « شرعة الشاى » فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، حتى إذا ما جاء القرن السابع عشر ، أصبح موضعاً للاهتمام فى حد ذاته ، ونشأت طائفة « أساتذة الزهور » تعلم الرجال والنساء

(*) محصول الشاى هو الآن بالطبع أحد منتجات اليابان الهامة . ويظهر أن الشركة الهولندية الشرقية هى التى جاءت إلى أوربا بأول ما عرفته من الشاى سنة ١٦١٠ ، وقد باعته حينئذ بواقع أربعمائة ريال تقريباً للرطل الواحد ، وقد قال « جوناس هانواى » سنة ١٧٥٦ إن الرجال فى أوربا يفقدون من طول قامتهم و النساء فيها يفقدون من جمالهن ، بفعل شرب الشاى ، وكان دعاة الإصلاح يحاربون هذه العادة بوصفهم إياها بالهمجية القذرة(٦١) .

(**) هذا « الحاكم العظيم » وهذا « العلم فى عالم الشاى » قد تحابا كما يتحاب الرجلان العبقريان ، وقد اتهم أولهما الثانى بتهمة الخيانة ، لكنه بدوره اتهم بإفساد ابنة الثانى (ركيو) وأخيراً انتحر « ركيو » على طريقة هاراكيرى(٦٣) .

j180degree.com

كيف ينبتون الزهور فى البستان وكيف ينسقونها فى دورهم ، فكان هؤلاء الأساتذة يقولون إنه لا يكفى أن تعجب بالزهور نفسها ، بل يجب أن تدرب نفسك على رؤية الجمال فى ورقة الزهور وفى غصنها وفى عودها كما ترى الجمال فى الزهرة نفسها ، وأن تدرب نفسك على رؤية الجمال فى زهرة واحدة كما تراه فى ألف زهرة ، وأن ترص الزهر رصاً لايقوم على أساس اللون وحده ، بل كذلك مع أساس طريقة ضمها فى طاقات وصفها[٦٤] ؛ وهكذا أصبح الشاى والزهور والشعر والرقص من لوازم الأنوثة بين بنات العلية فى اليابان .

الزهور عند اليابانيين بمثابة الدين ، فهم يعبدونها عبادة تشيع فيها روح التضحية بالقرابين ، ويلتقى فيها أفراد الشعب جميعاً ؛ وهم يرقبون فى كل فصل من فصول العام ما يلائمه من زهور ؛ فإذا ما أزهرت شجرة الكريز مدى أسبوع أو أسبوعين فى أوائل شهر إبريل ، يخيل إليك أن أهل اليابان جميعاً قد تركوا أعمالهم ليحدجوا فيها بأبصارهم ؛ بل إنهم ليحجون إلى الأماكن التى تزخر بهذه المعجزة ويكمل فيها إزهار هذا الضرب من الشجر(*) ؛ فهم لا يزرعون شجرة الكريز لثمارها ، بل لأزهارها — وزهرتها رمز للمحارب المخلص الذى يستعد للموت فى سبيل وطنه فى اللحظة التى تصل فيها حياته أوج شبابها[٦٥] ؛ وقد يحدث أن يطلب المجرمون المساقون إلى الإعدام زهرة من زهرات الكريز وهم فى طريقهم إلى الموت[٦٦] ، وتروى لنا « السيدة تشيو » فى قصيدة لها مشهورة ، أن فتاة قصدت بئراً تستخرج منه الماء ، فلما وجدت الدلو والحبل ملتفاً عليهما أغصان النبات اللبلابى ، قصدت مكاناً آخر تحصل منه على الماء ، مؤثرة ذلك على قطع أسلاك النبات[٦٧] ، ويقول «تسورايوكى» « إنه ليستحيل عليك أن تفهم قلب الإنسان ، لكن الزهور فى قريتى ما تزال كسابق عهدها تنفث عبقها[٦٨] ، هذه العبارة الساذجة هى من أعظم الشعر

(*) هم كذلك يحجون إلى حيث يشاهدون أوراق الأسفندان تتحول إلى السقوط .

http://nj180degree.com

اليابانى ، لأنها تعبر عن خصيصة عميقة لجنس بشرى بأسره : تعبر عنها تعبيراً كاملا يتعذر أن تحذف منه شيئاً ، كما تعبر عن نتيجة صادقة من نتائج الفلسفة ، إنك لن تجد بين أمم العالم أمة أحبت الطبيعة بمثل ما أحبها اليابانيون ولن تجد الناس فى أى جزء من أجزاء الأرض غير اليابان يتقبلون راضين تقلبات الطبيعة كما تتبدى فى الأرض والسماء والبحر ، ولن تجد بلداً آخر غير اليابان عنى فيه الناس بزراعة البساتين ، أو بتغذية النبات إبان نموه ، أو خصوه برعايتهم فى دورهم ، إن اليابان لم تنتظر حتى يجيئها « روسو » أو « وردزورث » لينبئها أن الجبال شوامخ أو أن البحيرات قد يكون لها روعة الجمال ، فتكاد لا تجد فى اليابان منزلا بغير أصيص للزهور ، كما توشك ألا تجد قصيدة واحدة فى الأدب اليابانى تخلو من وصف مشاهد الطبيعة فى ثنايا سطورها ؛ فكما أن « أوسكار وايلد » كان من رأيه أن انجلترا لا ينبغى لها أن تحارب فرنسا لأن الفرنسيين يكتبون نثراً بلغ فى فنه حد الكمال ، فكذلك نقول أن أمريكا يجب أن تنشد السلام إلى آخر جهدها مع أمة تتعطش للجمال فى عاطفة جارفة تكاد تبلغ فى حدتها قوة نهمها إزاء السلطان .

إن فن غرس الحدائق قد جاءها من الصين جنباً إلى جنب مع البوذية والشاى ؛ لكن هاهنا ترى اليابانيين مرة أخرى يحولون بقوة إبداعهم ما قد تشربوه من غيرهم عن طريق المحاكاة ، فتراهم يستملحون جمال الشىء إذا خلا من الاتساق . ويستجملون الأشكال المبتكرة التى لم يقتلها التكرار ، فتجىء للرائى بمثابة المفاجأة ، وهم يقصرون الأشجار والشجيرات بأن يحصروا جذورها فى أصُص ، وتدفعهم فى ذلك فكاهة شيطانية وصبٌّ عارم إلى أن يروضوا تلك الأشجار بحيث يصوغونها فى أشكال يجوز لنا ، إذا ما رأيناها تكوّن سور البستان — أن نقول عنها إنها تمثل أشجار اليابان التى عصفت بها عواصف تلك البلاد فلوت أفنانها ، وتراهم يبحثون فى فوهات براكينهم وفى أوعر شطئانهم لعلهم واجدون صخوراً امتزجت بالمعادن بفعل

j180degree.com

النيران الداخلية ، أو صاغها حجّارون صابرون فى أشكال غريبة ملتوية الأجزاء ، وهم يحتفرون البحيرات الصغيرة ، ويشقون النهيرات الفوارة بمائها ، ويصلون ضفافها بجسور تبدو للرائى كأنما جاءت نمواً طبيعياً فى أشجار الغابات ، وهم يدقون خلال هـــذه التكوينات المختلفة كلها مماش ينقشونها نقشاً دقيقاً ، فتؤدى بك تارة إلى جديد يفجؤك ، وطوراً إلى ركن هادئ بليل الهواء .

وحيث تسعفهم فسحة الأرض وكثرة المال تراهم أميل إلى أن يجعلوا بيوتهم جزءاً من حدائقهم ، منهم إلى أن يجعلوا حدائقهم جزءاً من بيوتهم ، ومنازلهم هزيلة البنيان لكنها جميلة ؛ فلئن جعلت الزلازل الأبنية العالية خطراً داهماً ، فقد عرف النجار وقاطع الخشب كيف يربط ألواح الخشب وشرائحه وعمده فيجعل منها مسكناً تبلغ بساطته حد التقشف . لكن يبلغ جماله حد الكمال بحيث تراه فى فن عمارته نسيج وحده ، إنك لا ترى فى مثل هذا المسكن ستائر أو أرائك أو أسرة أو مناضد أو مقاعد ، ولا ترى دلائل بارزة تدل على ثروة الساكن ورفاهيته ، لا ترى متحفاً للصور ولا التماثيل ولا التحف ؛ لكنك ترى فى ركن من الحديقة غصناً مزهراً ، وعلى الحائط صورة من الحرير أو الورق ، أو ترى قطعة من الخط الزخرفى ، وتجد على الأرض المغطاة بالحصير وسادة وضع أمامها كرسى مما تسند عليه الكتب للقراءة ، وعلى أحد جانبيها خزانة كتب وعلى جانبها الآخر مسندة ، وهم يخفون الحشايا والأغطية فى حزانة خشبية ، ليخرجوها وينشروها على الأرض إذا حان وقت النوم ، فى مثل هذه الأحياء المتواضعة ، أو فى كوخ الفلاح الهزيل كانت تسكن الأسرة اليابانية ، وتبقى على الحياة وعلى المدنية فى « الجزر المقدسة » خلال ما تعاور البلاد من زعازع الحروب والثورات ومن فساد سياسى وكفاح فى سبيل الدين .

http://nj180degree.com

الفصل الخامس

الأسرة

الأب المستبد — منزلة المرأة — الأبناء —
الأخلاق الجنسية — الـ « جيشا » — الحب

الأسرة هى المصدر الحقيقى للنظام الاجتماعى ، ولئن كان هذا صحيحاً بالنسبة للغرب ، فهو أصح بالنسبة للشرق ، وجمع السلطة كلها فى يد الأب فى اليابان — كما هى الحال فى سائر أنحاء الشرق — لا يدل على انحطاط فى درجة الرقى الاجتماعى ، بل يدل على إيثارهم للحكومة الأسرية على الحكومة السياسة ، فليس للفرد من الأهمية فى الشرق بمقدار ما له من الأهمية فى الغرب ، وذلك لأن الدولة فى الشرق كانت أضعف منها فى الغرب ؛ ولذا تطلبت الدولة أن يكون إلى جانبها أسرة قوية النظام شديدة الطاعة لتقوم مقام السلطة المركزية التى تشمل بسلطاتها شتى نواحى الحياة كبيرها وصغيرها على السواء ؛ وقد فهمت الحرية فى الشرق بالنسبة للأسرة لا بالنسبة للفرد ، ذلك لأنه لما كانت الأسرة هى وحدة الإنتاج فى عالم الاقتصاد كما كانت وحدة النظام الاجتماعى ، كان النجاح أو الفشل ، بل الحياة أو الموت ، لا يخص الفرد الواحد بل يصيب الأسرة كلها ؛ فكانت سلطة الوالد استبدادية ، لكنها رغم استبدادها كانت تشوبها الرأفة التى لا يعقبها شىء من الضرر ؛ وذلك بكونها تبدت للناس أمراً طبيعياً وضرورياً وإنسانياً ؛ فقد كان من حقه أن يطرد من الأسرة زوج ابنته أو زوجة ابنه بينما يحتفظ بحفدته فى صحبته ؛ بل كان من حقه أن يقتل ابنه أو ابنته إذا اتهم أحدهما بالدعارة أو غيرها من الجرائم الخطيرة ، وأن يبيع أبناءه أو بناته فى سوق النخاسة

j180degree.com

أو سوق الدعارة(*) وفى مستطاعه أن يطلق زوجته بكلمة واحدة(٧٠) فإذا ماكان الرجل من عامة الشعب ، كان الأغلب أن يقتصر على زوجة واحدة ، أما إذا كان من أبناء الطبقة العليا فقد كان من حقه أن يحيط نفسه بالخليلات ؛ ولم يكن أحد ليهتم بما يقترفه من خيانة زوجية آناً بعد آن(٧١) ؛ ولما دخلت المسيحية بلاد اليابان ، شكا الكتاب من أهل البلاد مما أحدثته من اضطراب فى هدوء الحياة العائلية ، بتعاليمها التى تجعل اتخاذ الخليلات واقتراف الزنا من الخطايا(٧٢) .

وكانت منزلة المرأة فى اليابان — كما هى الحال فى الصين — أعلى فى مراحل المدنية الأولى منها فى المراحل المتأخرة ، ، فترى ست نساء بين حكام البلاد إبان العهد الإمبراطورى ، ولعبت المرأة فى كيوتو دوراً هاماً ، بل لعبت الدور الأول فى حياة الأمة الاجتماعية والأدبية ؛ وفى ذلك العهد الذهبى للثقافة اليابانية — لو جاز لنا أن نجازف بالرأى فى مثل هذه النواحى الغامضة — سبق الزوجات أزواجهن فى عالم الزنا ، بحيث كن يبعن العفة بقول جميل يقال(٧٣) وتصف لنا « السيدة سى شوناجون » شاباً على وشك أن يرسل رسالة غرامية لخليلته ، فقطعها ليغازل فتاة عابرة ؛ ثم تضيف تلك الكاتبة المحبوبة البارعة فى أدب المقالة ، قولها : « ولست أدرى إن كان الرسول الذى حمل رسالة هذا المحب معطرة بقطرات الندى انتثرت من الزهور العبقة ، قد تردد فى تقديمها إلى الحبيبة ، إذ وجدها هى بدورها تستضيف عشيقاً »(٧٤) ؛ ثم انتشرت نظرية أهل الصين فى إخضاع المرأة للرجل ، حين انتشر النظام الإقطاعى الحربى ، وحين تناوب البلاد تهاون وشدة جعلا يتعاقبان على نحو طبيعى يسجله التاريخ ؛ فأصبح المجتمع يسوده الذكور ، وأذعن النساء « للطاعات الثلاث » — الولد والزوج والابن ؛ — وأوشك الناس ألا يضيعوا جهدهم فى تعليم النساء ، اللهم إلا تعليمهن آداب الأوضاع الاجتماعية ؛ وطولب النساء بالأمانة الزوجية يتهددهن فى ذلك عقاب الإعدام ؛ فإذا وجد

(*) لم يكن يقع هذا إلا فى أحط الطبقات وعند الضرورة القصوى (٦٩)

http://nj180degree.com

الزوج زوجته متلبسة بجريمة الزنا ، كان من حقه ان يقتلها مع عشيقها فوراً ؛ وقد أضاف « ايياسو » بدقته إلى هذا الحق شرطاً ، فقال إن الزوج إذا قتل المرأة فى مثل هذه الحال وأخلى سبيل الرجل ، حق عليه هو نفسه عقاب الموت(٧٦) ؛ وقد نصح الفيلسوف « إكن » للزوج أن يطلق زوجته إذا ما أسرفت فى حديثها من حيث ارتفاع الصوت ، أو طول الكلام ؛ أما إذا حدث أن كان الزوج منحل الخلق وحشى الطبع ، فينبغى لزوجة — فى رأى « إكن » — أن تضاعف له الرحمة والدعة ؛ وفى ظل هذا التدريب الشديد المتصل ، أصبحت المرأة اليابانية أنشط الزوجات وأخلصهن وأكثرهن طاعة ؛ وإن الرحالة الذين أخذهم العجب لهذا النظام الذى أنتج مثل هذه النتائج الحميدة ، ليتساءلون إن كان من الحكمة أن ندخله فى بلاد الغرب(٧٧) .

ولم تكن كثرة النسل تجد تشجيعاً فى اليابان « الساموريه »(*) على خلاف ما نراه فى أقدم عادات المجتمع الشرقى وأكثرها قدسية ؛ وذلك لأنه لما تكاثر السكان أحست الجزر الصغيرة أنها قد ازدحمت بأهليها ، وأصبح من عوامل السمعة الحسنة للرجل من طائفة « السيافين » ألا يتزوج قبل سن الثلاثين ، وألا ينجب من الأطفال أكثر من اثنين(٧٨) ؛ ومع ذلك فقد كان ينتظر من كل رجل أن يتزوج وأن ينسل الأبناء ، فإذا تبين العقم فى زوجته ، كان من حقه طلاقها ؛ وإن نسلت له بنات ولا أبناء ، نصحوه بأن يتبنى ولداً حتى لا يضيع اسمه وتتبدد أملاكه ، لأن البنات ليس من حقهن أن يرثن شيئاً(٧٩) . كان الأطفال يربون على أساس الفضائل الصينية ، وفى جو من الأدب الذى يبث إخلاص البنوة ، لأن انتظام الدولة وأمنها كانا يعتمدان على هذه الطاعة التى تبعث فى الأبناء والتى تكون معيناً للنظام فى الأسرة ، وقد أمرت

(*) الساموراى « السياف » ، واليابان الساموريه ، هى اليابان فى العهد الذى ساد فيه السيافون . (المعرب)

j180degree.com

الإمبراطورة « كوكن » — فى القرن الثامن — كل أسرة يابانية أن تحصل لنفسها على نسخة من متن الطاعة المفروضة على الأبناء للآباء » ؛ وكان يطلب إلى كل تلميذ فى مدارس الأقاليم أو فى الجامعات أن يتقن دراسة هذا الكتاب إتقانا تاماً ؛ ولو استثنيت طائفة السيافين الذين كانت واجبات الطاعة عندهم مفروضة أولا لسادتهم ؛ إذا استثنيت هؤلاء ، وجدت طاعة الأبناء لآبائهم هى الفضيلة الأساسية العليا عند اليابانيين ؛ بل إن علاقة اليابانى بالإمبراطور ، كانت علاقة الحب والطاعة من ولد إلى والده ؛ ولبثت هذه هى الفضيلة الرئيسية فى التشريع الخلقى كله تقريباً عند عامة الناس فى اليابان ، حتى جاءهم الغرب بأفكاره الثورية التى تنادى بحرية الأفراد ؛ وكان يستحيل على الجزر اليابانية أن تتحول إلى المسيحية ، بسبب ما ورد فى الإنجيل من أمر للرجل بأن يترك أباه وأمه ليلصق بزوجته(٨٠).

لم تكن الفضائل الأخرى — فيما عدا الطاعة والولاء — لتحتل بينهم مثل المكانة التى تحتلها فى أوربا المعاصرة ؛ فالعفة كانت فضيلة مرغوباً فيها ، حتى لقد قتل بعض نساء الطبقة العليا أنفسهن حين تعرضت بكارتهن للخطر(٨١) ، لكن كبوة واحدة لم يكن معناها عندهم القضاء على المرأة قضاء كاملا ؛ وأشهر القصص اليابانية ، وهى قصة « جنجى مونوجانارى » هى عبارة عن ملحمة تروى قصة غواية فى الطبقة العليا ؛ وأشهر مقالات فى الأدب اليابانى وهى المجموعة فى كتاب « صور على الوسادة » لكاتبته « السيدة سى شوناجون » تراها فى بعض المواضع كأنما أريد بها أن تكون رسالة فى الأوضاع الصحيحة التى ينبغى مراعاتها عند اقتراف الخطيئة(٨٢) ، فقد نظر القوم إلى شهوات الجسد نظرتهم إلى أمر طبيعى كما ينظرون إلى الجوع والظمأ ؛ فترى آلاف الرجال — وكثير منهم أزواج محترمون — يحتشدون ليلا فى « يوشى وارا » ، (أى حى الزهر) فى طوكيو ؛ ففى ذلك الحى منازل خرجت على النظام ، يسكنها خمسة عشر ألف امرأة زانية رخص لهن بالزنا ومهرن فيه ، تراهن فى الليل

http://nj180degree.com

جالسات وراء « شيش » نوافذهن ، فاخرات الثياب بيضاوات بما وضعنه على أجسادهن من مساحيق ، مستعدات للغناء والرقص والدعارة لمن ليس له امرأة عشيرة من الرجال ، أو لمن ساءت عشيرته منهم (٨٣) .

وأعلى هؤلاء الزانيات ثقافة هن فتيات « الجيشـــا » الذى يدل اسمهن هذا على أنهن بارعات فى فنهن (فكلة جيشا مكونة من مقطعين : « جى» ومعناها بارع فى الأداء الفنى ، و « شا » ومعناها شخص) وهن شبيهات بطائفة « الغوانى » فى اليونان ، فى أنهن قد أثرن فى الأدب كما أثرن فى عالم الحب ، ومزجن فوضاهن الخلقية بالشـــعر ، لكن حدث أن أمر الحاكم العسكرى « أينارى» (١٧٨٧ — ١٨٣٦) عام ١٧٩١ بتحريم الاستحمام الذى يخلط الجنسين معاً ، لأنه أحياناً يؤدى إلى الخروج على قواعد الأخلاق(٨٤) ، ثم أصدر أمراً شديداً سنة ١٨٢٢ يقاوم به فتيات « الجيشا » وقد وصف الواحدة منهن بأنها « مغنية تلبس فاخر الثياب ، وتعرض نفسها مأجورة لتسلية رواد المطاعم ، بالرقص والغناء فى ظاهر الأمر ، لكنها فى الحقيقة تمارس شيئاً يختلف عن هذين كل الاختلاف »(٨٥) ؛ ومنذ ذلك التاريخ عُدّ هؤلاء النساء بين « الزانيات اللاتى لا يقعن تحت الحصر » بحيث كن فى عهد « كيمفر» يملأن حوانيت الشاى فى القرى ، كما يملأن الفنادق أينما وجدتها على طول الطريق(٨٦) ومع ذلك فقد لبثت الحفلات والعائلات تدعو فتيات « الجيشا » ليقمن بالتسلية فى الاجتماعات ؛ وفتحت مدارس تتلقى فيها فتيات « الجيشا » الناشئات على أيدى « الجيشا » القديمات مختلف أوضاع الفن ؛ وكان يحدث أحياناً أن يجتمع المعلمات والمتعلمات معاً فى حفلات الشاى ، ليقمن بعرض الجانب المحتشم من ألون ما يعرفنه من فنون ؛ والآباء الذين يتعـــذر عليهم أحياناً أن يعولوا بناتهم ، كانوا يوافقون بمحض اختيارهم على تدريب بناتهم فى فنون « الجيشا » لعل ذلك يكون مورد كسب لهن ؛ وما أكثر القصص اليابانية التى تروى عن بنات أسلمن أنفسهن لهذه الحرفة إنقاذاً لأسراتهن من أنياب الجوع(٨٧).

j180degree.com

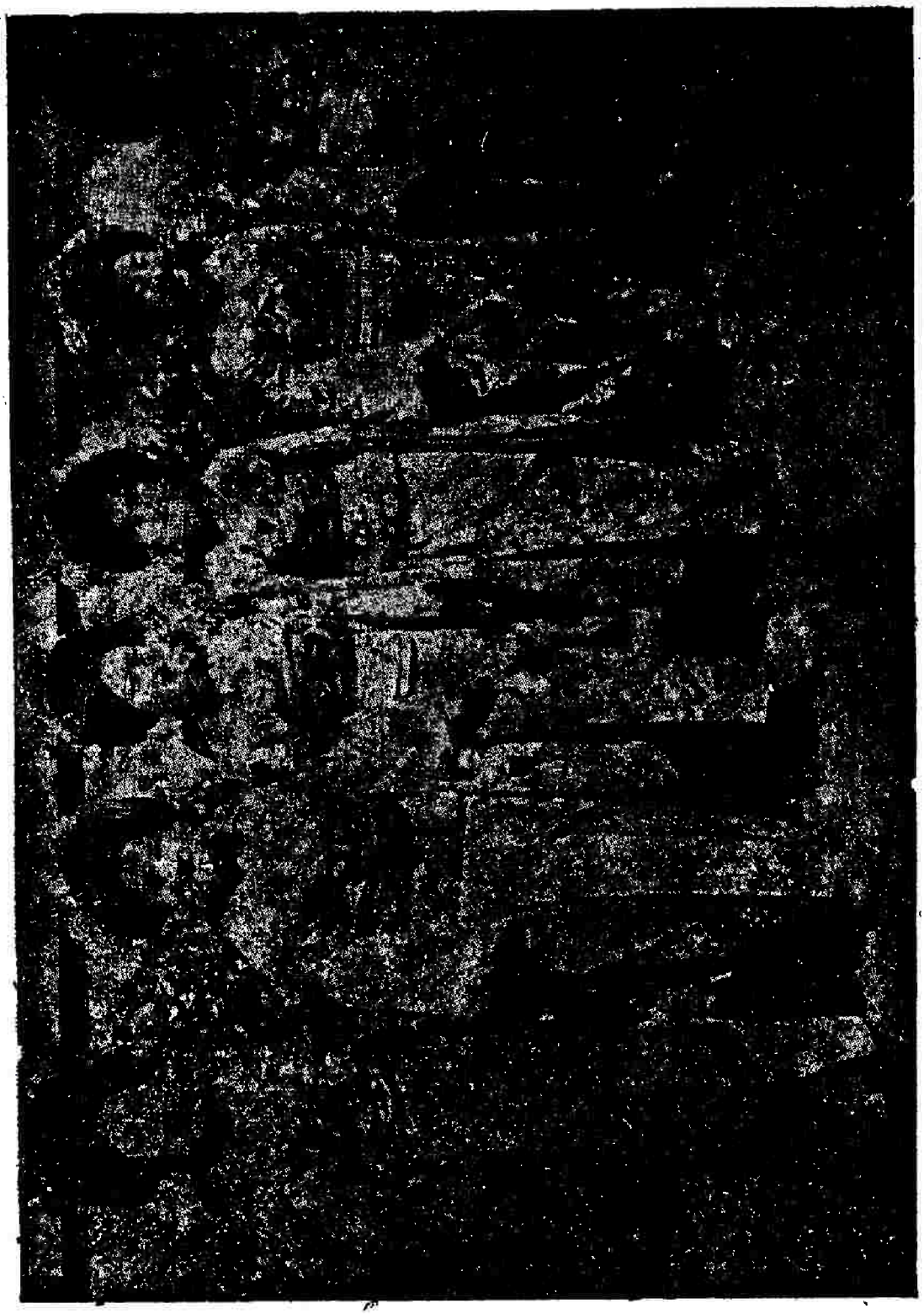

فتيات حيفا

http://nj180degree.com

إن هذه العادات — مهما بلغت من غرابة تفزع لها فزعاً — لا تختلف فى جوهرها عن عادات الغرب ونظمه الاجتماعية ، اللهم إلا فى الصراحة والتهذيب ولطف الأداء ؛ وإنه ليقال لنا على سبيل التأكيد أن الأغلبية الكبرى من فتيان اليابان ، لم تزل عفيفة كعذراوات الغرب سواء بسواء(٨٨) ؛ فعلى الرغم من هذه النظم الصريحة ، ترى اليابانيين يحيون حياة لا بأس بها من حيث النظام والاحتشام ؛ وعلى الرغم من أنهم كثيراً ما كانوا يأبون الجرى مع دوافع الحب فى عقد الزواج الدائم مدى الحياة ، فقد كان فى وسعهم أن يظهروا أرق العواطف إلى نحو ما يميلون إليه من أشياء ، فما أكثر الأمثلة التى نصادفها فى حوادث التاريخ ، وفى الوقائع الخيالية التى وردت فى الأدب اليابانى ، التى تدل على أن الشبان والشابات قد قتلوا أنفسهم آملين أن يتمتعوا فى الآخرة الأبدية بالاتصال الذى حرمه عليهم آباؤهم على هذه الأرض(٨٩) ؛ وليس الحب هو الموضوع الرئيسى فى الشعر اليابانى ؛ لكنك مع ذلك تسمع نغماته هنا وهناك بسيطة مخلصة عميقة على نحو لا يضارعها فيه أدب آخر :

آه ، تحولت الأمواج البيض على مدى البصر ،
مما أراه طافياً على بحر « أيسى »
زهراتٍ
أجمعها طاقةً
أقدمها هدية لحبيبتى (٩٠)

ثم اسمع « تسورايوكى » العظيم يحكى قصة حبه المرفوض فى أربعة أسطر ، مزج فيها الطبيعة بشعوره مزجاً يميز الأدب اليابانى :

أتقول ألا شىء وشيك الزوال
مثل زهرة الكريز ؟ ... لكنى أذكر لحظة
ذبلت فيها زهرة الحياة بكلمة واحدة
ولم تعد تتحرك من الريح هبّةً (٩١)

j180degree.com

الفصل السادس

القديســـون

الدين فى اليابان — تحول البوذية — الكهنة — الشحاك

إن شعور الولاء الذى يعلن عن نفسه فى الوطنية وفى الحب وفى حب الوالدين وحب الأبناء وحب الخليل وحب الوطن ، هو نفسه الشعور الذى لا بد أن يلتمس فى الكون باعتباره كلا واحداً ، قوة رئيسية يتوجه إليها بالولاء ، ويستمد منها شيئاً من القيمة والمعنى اللذين يكونان أوسع نطاقاً من حدود الشخص الواحد ، وأدوم بقاء من حدود عمر واحد ؛ ولئن كان اليابانيون على درجة من الاعتدال فى تدينهم — فهم ليسوا كالهندوس فى عمق إيمانهم الدينى وشدة انغماسهم فى ذلك الدين ، كلا ولا هم يشبهون قديسى الكاثوليكية فى العصور الوسطى فى حدة عاطفتهم الدينية وتهوسهم فى عقيدتهم حتى بلغوا فى ذلك حد تعذيب أنفسهم ، وقل ذلك عن رجال الإصلاح الدينى المتنازعين ، لم يكن اليابانيون مثل هؤلاء ولا هؤلاء ، ومع ذلك فقد أخلصوا إخلاصاً ظاهراً للتقوى وللصلاة وللفلسفة التى تنتهى بهم إلى التفاؤل ، حتى لقد تميزوا بذلك من بنى عمومتهم المتشككين الذين كان يفصلهم عنهم البحر الأصفر .

لقد جاءت البوذية من لدن مؤسسها سحابة قاتمة من التشاؤم ، تدعو الناس إلى الموت ، لكنها لم تلبث تحت سماء اليابان أن تحولت إلى عقيدة قوامها آلهة وافية ، وإلى محافل دينية تبعث الغبطة فى النفوس ، وأعياد مرحة وحجيج إلى روائع الطبيعة على غرار ما كان يتمناه روسو ، وجنة موعودة تسرى عن الصدور كروبها ؛ نعم إن البوذية آمنت بالجحيم كما آمنت بالجنة — بل آمنت

http://nj180degree.com

بوجود عدد من الجحيمات يبلغ مائة وثمانية وعشرين ، أعدت لشتى الغابات ومختلف الأعداء وآمنت بعالم للشياطين ، كما آمنت بعالم للقديسين ، كذلك آمنت بوجود شيطان مشخص (يسمونه أونى) له قرون وأنف أفطس ومخالب وأنياب ، ويسكن فى مكان مظلم يقع فى الشمال الشرقى ، وأنه آناً بعد آن يغرى النساء بالذهاب إليه هناك ليمتعنه ، كما يغرى الرجال ليستمد منهم فى غذائه مادة البروتين(٩٢) ؛ ولكن إلى جانب هذا كله كانت عقيدة البوذية اليابانية أن هناك « بوذين » كثيرين على استعداد أن يخلعوا على بنى الإنسان جزءاً من الرحمة التى جمعوها مقداراً على مقدار بسبب عودتهم إلى الحياة مرة بعد مرة ، وفى كل مرة يقضون حياتهم فى فضيلة ، وكانت هنالك كذلك عقيدة فى آلهة رحيمة ؛ مثل « مولاتنا كوانون » ومثل « جيزو » الذى يشبه المسيح ؛ وفى أمثال هؤلاء تجد الرحمة الإلهية بأدق معانيها ؛ وكانت العبادة يؤدّى بعضها صلاةً عند مذابح المنازل أو عند أضرحة المعابد ، على أن معظم عبادتهم كان يتخذ صورة المواكب المرحة ؛ كانت الديانة فيها تخلى المكان الأول لمظاهر الغبطة والفرح ، وكانت التقوى تتبدى علائمها فى لبس النساء للأثواب الجميلة ، وفى انغماس الرجال فى ألوان المتع ؛ ويستطيع العابد الجادّ فى عبادته أن يطهر روحه بالصلاة مدى ربع ساعة تحت شلال دافق فى قلب الشتاء ؛ أو بالأخذ فى رحلات ينتقل فيها من ضريح إلى ضريح من أضرحة مذهبة ليشبع روحه أثناء هذه الرحلات بجمال أرض الوطن ؛ ذلك لأن اليابانى يستطيع أن يختار لنفسه مذهباً من عدة مذاهب فى البوذية : فله أن يحقق وجود نفسه وأن يلتمس سعادة نفسه عن طريق شعائر « زِنْ » (أى التأمل) الهادئة ؛ وله أن يتبع « نيشيرين » المتأجج فيأخذ عنه مذهب اللوتس ويظل فى صيام وصلاة حتى يظهر له بوذا بشخصه ؛ وله أن يختار لطمأنينة نفسه مذهب الأرض الطاهرة ؛ بحيث لا يجد الخلاص إلا فى الإيمان ؛ وله أن يختار لنفسه سبيلها فى حج صبور إلى حيث دير « كوياسان » وهناك يبلغ الجنة بأن

j180degree.com

يدفن فى أرض تقدست بفضل ما فيها من عظام « كوبوداىشى » — ذلك العظيم فى علمه وفى تدينه وفى فنه، وهو الذى أسس فى القرن التاسع مذهب « شنجون » أى مذهب « الكلمة الصادقة » .

وعلى وجه الجملة فالبوذية اليابانية هى من أمتع ما اعتقدت فيه الإنسانية من أساطير ، ولقد غزت اليابان مُسالمةً ، ولم يتعذر عليها وأن تخلى من نفسها مكاناً فى لاهوتها وفى عداد آلهتها، لمذاهب « شنتو » وآلهتها فاندمج بوذا عندهم بـ « أماتيراسو » وخصص مكان متواضع فى المعابد البوذية لضريح « شنتو » وكان الكهنة البوذية الذين ظهروا فى القرون الأولى رجالا فيهم الولاء وفيهم العلم وفيهم الرحمة ، وكان لهم أثر عميق فى تقدم الآداب والفنون فى اليابان ، حتى لقد كان منهم رسامين أو نحاتين من الطراز الأول ، كما كان بعضهم علماء ، أخذوا على أنفسهم ترجمة الأدب البوذى والصينى ، فكانت ترجماتهم تلك حافزاً قوياً على التقدم الثقافى فى اليابان على أن هذا النجاح كان سبباً فى إفساد الكهنة فى العصور المتأخرة ، إذ أصبح منهم كثيرون أميل إلى الكسل والجشع (لاحظ فى هذا الصدد الصور الرمزية التى كثيراً ما يصورهم بها اليابانيون الذين يحترفون مهنة النقش عل العاج أو الخشب) ، و بعُدَ بعض أولئك الكهنة عن بوذا بعداً فسيحاً بحيث راحوا ينظمون لأنفسهم جيوشاً ينشئون بها سلطة سياسية أو يحافظون بها على مثل هذه السلطة السياسية إن كانت قائمة[٩٣] ؛ ولما كان الكهنة يهيئون للناس ضرورة هى أولى ضرورات الحياة — وأعنى بها تهيئة الأمل الذى يسرّى عن النفوس . فقد ازدهرت صناعتهم حتى فى الوقت الذى تدهورت فيه صناعات الآخرين ؛ وأخذت ثروتهم تزداد قرناً بعد قرن ، بينما لبث الشعب فقيراً على حاله[٩٤] ؛ وقد أكد الكهنة للعباد المؤمنين بأن الرجل فى سن الأربعين يمكنه أن يشترى عقداً آخر من السنين يضيفه إلى حياته إذا هو دفع رسوماً لأربعين معبداً تدعو له بذلك ، ويمكن للرجل فى سن الخمسين أن يشترى عشر سنين أخرى إذا دفع الرسوم لخمسين

http://nj180degree.com

معبداً تدعو له ، وفى سن الستين يستأجر ستين معبداً — وهكذا حتى يموت بسبب ما قد يكون فى تقواه من نقص(٩٥)(*) ، وكان الرهبان فى عهد « توكوجاوا » يشربون الخمر إلى درجة الإسراف ويحيطون أنفسهم بالغانيات صراحة ، ويمارسون اللواط(**) ، ويبيعون أحسن مناصب الدين إلى من يدفع فيها أغلى الأثمان(٩٦) .

ويظهر أن البوذية قد فقدت سلطانها على الأمة خلال القرن الثامن عشر ؛ واتجه الحكام العسكريون نحو الكونفوشية ، ونهض « مايوشى » و « موتوأورى » فتزعما حركة تدعو إلى إحياء عقيدة « شنتو » ؛ وحاول علماء من أمثال « إشيكاوا » و « أراى هاكوسيكى » أن ينقدوا الدين نقداً عقلياً ؛ فقال « إشيكاوا » فى جرأة بأن الأصول الدينية التى تتناقلها الأجيال عن طريق الرواية الشفوية يستحيل أن تبلغ من اليقين مبلغ المدوّنات المكتوبة ؛ وأن الكتابة لم تدخل اليابان إلا بعد ألف عام تقريباً من الأصل المزعوم للجزر اليابانية وأهليها من أن هذه الجزر وهؤلاء الأهلين قد نشأوا من قطرات الرمح التى أمسك بها الآلهة ، أو من أصلاب هؤلاء الآلهة ؛ وأن ادعاء الأسرة الإمبراطورية بأنها من أصل إلهى ، إنما هو إلا حيلة سياسية ، وأنه إذا لم يكن أسلاف البشر بشراً مثلهم فالأرجح أن يكونوا حيواناً ، فذلك أقرب إلى التصديق من أن يكونوا آلهة(٩٩) ؛ وهكذا بدأت المدنية فى اليابان القديمة — كما بدأت فى بلاد كثيرة غيرها — بالدين ، وها هى ذى تدنو من ختامها بالفلسفة .

(*) يقول مردوخ : « كان الرهبان فى دير كيوتو » و « نارا » العظيمين يبلغون ذروة مجدهم المادى فى الأوقات التى كان يتضور الشعب فيها جوعاً ، أو يموت بعشرات الآلاف من الوباء ، لأن المؤمنين بالدين يسخون فى هداياهم وعطاياهم أعظم سخاء فى أمثال هذه الأوقات »(٩٦).

(**) فى سنة ١٤٥٤ ... كان الصبية يباعون غالباً للكهنة ، فكان هؤلاء الكهنة يحلقون لهم حواجبهم ويزينون وجوههم بالمساحيق ويلبسونهم أردية النساء ، ويستعملونهم أسفل ضروب الاستعمال ، لأنه منذ عهد « يوشيمتسو » الذى نضرب مثلا سيئاً فى هذا الصدد وفى كثير غيره من الأمور ، واللواط يزداد شيوعاً ، خصوصاً فى الأديرة ، ولو أنه لم يكن قاصراً على الأديرة وخدمها »(٩٧) .

j180degree.com

الفصل السابع

المفكرون

كونفوشيوس يصل اليابان — ناقد للدين — ديانة العلماء — كايبارا إكن — فى التربية — فى ألوان المتعة — المدارس المتنافسة — سبينوزا يابانى — إيتوجنساى — إيتوتوجاى — أوجيو سوارى — حرب العلماء — مايوشى — موتو أورى

جاءت الفلسفة — كما جاء الدين — إلى اليابان قادمة من الصين ؛ وكما أن البوذية قد انتهت إلى « نيبون » بعد دخولها فى « مملكة الشعب الوسطى الزاهرة » بستمائة عام ؛ فكذلك بلغت الفلسفة مرحلتها الواعية فى اليابان — متخذة صورة المذهب الكنفوشيوسى — بما يقرب من أربعمائة عام بعد أن أفاضت الصين على الكونفوشيوسية حياة جديدة ؛ فنى نحو منتصف القرن السادس عشر ، ظهر رجل من سلالة الأسرة اليابانية المشهورة ، وهو : « فيوجيواراسيجوا » ولم يُرْضه العلم الذى حصله باعتباره راهباً ؛ وكان قد سمع بحكماء عظماء فى الصين ، فقرر أن يرتحل إلى هناك طالباً للعلم ؛ ولما كان الاتصال بالصين محرماً فى سنة ١٥٥٢ ، فقد دبر الكاهن الشاب خطة يعبر بها مياه البحر فى سفينة كانت تشتغل بالتهريب ؛ وحدث أن كان يرقب هذه السفينة فى نُزُل فى الميناء ، فسمع إذذاك طالباً يقرأ بصوت عال باللغة اليابانية كتاباً صينياً عن كونفوشيوس ؛ فكم كانت غبطة « سِجوا » حين علم أن الكتاب من تأليف « شوهسى » تعليقاً على « العلم الواسع » ؛ فهمس لنفسه قائلا : « هذا هو ما كنت أسعى إليه منذ طويل » ؛ ولبث يبحث بحثاً لا يفتر حتى حصل على نسخة من هذا الكتاب كما حصل على نسخ من سائر ما أنتجته الفلسفة الكونفوشيوسية ، وانغمس فى تتبع ما فى هذه الكتب من مجادلات ،

http://nj180degree.com

حتى نسى رحلته إلى الصين ؛ ولم تمض بضعة أعوام حتى جمع حوله طائفة من طلبة العلم الناشئين ، الذين نظروا إلى فلاسفة الصين نظرتهم إلى وحى أوحى به إليهم عن عالم جديد طريف يسوده الفكر الدنيوى ؛ وسمع « أبياسو » بما قد انتهت إليه تلك الدراسات ، فطلب من « سجوا » أن يأتيه ليعرض عليه مضمون هذه المؤلفات الخالدة التى تنسب إلى كونفوشيوس ؛ لكن الكاهن المعتد بنفسه آثر البقاء فى مكانه الهادئ الذى يدرس فيه ، وأرسل بدلا عنه أحد تلاميذه النابهين ؛ ورغم عكوفه هذا ، أخذ الشباب الممتاز فى عصره بفاعلية العقل ، يحج إليه ويطرق بابه ، واستوقفت محاضراته الأسماع إلى حد جعل الرهبان البوذيين فى كيوتو يرفعون عقائرهم بالشكوى ، قائلين إنها لثورة أن يقوم كاهن أصيل لم يزل فى سلك الكهنوت ، فيلقى محاضرات عامة أو يعلم الشعب(١٠٠) ، غير أن الأمر حُلّتْ عقدته بموت « سجوا » موتاً مفاجئاً (سنة ١٦١٩) .

وسرعان ما كسب تلميذه الذى أرسله إلى « أبياسو » شهرة فاقت شهرته ، وأصبح له من التأثير ما بزّ به تأثير أستاذه ؛ وكان تلميذه هذا هو « هاياشى رازان » الذى مال إليه الحكام العسكريون الأولون من أسرة « توكوجاوا » ، فجعلوه مستشارهم وطلبوا إليه أن يصوغ لهم الكلمات التى يتوجهون بها إلى الشعب ؛ وضرب « أيمتسو » مثلا لطائفة النبلاء ، إذ جعل يختلف إلى محاضرات « هاياشى » فى سنة ١٦٣٠ ؛ وسرعان ما ملأ هذا الشاب الكونفوشيوسى صدور سامعيه حماسة للفلسفة الصينية ، حتى لم يعد عسيراً عليه أن يجتذبهم من البوذية والمسيحية على السواء ، ويضمهم إلى العقيدة الخلقية البسيطة التى أشاعها حكيم « شانتونج » فى أرجاء الشرق الأقصى ؛ فقد أنبأهم أن اللاهوت المسيحى خليط من أوهام خلقها الخيال ولا تعقلها العقول ، كما أنبأهم أن البوذية مذهب يفت فى عضد الأمة اليابانية ويتهدد نسيجها بالوهن وروحها المعنوية بالضعف ؛ يقول لهم « رازان » . « إن كهنتكم يذهبون إلى أن

j180degree.com

هذه الحياة الدنيا فانية زائلة ؛ ثم تعملون أنتم على أن ينسى الناس علاقاتهم الاجتماعية ، وبهذا تقتلون فى الناس روح الواجب والفعل الصواب ؛ ثم تقولون إن طريق الإنسان محفوف بالخطايا ؛ فاهجر أباك وأمك وأبناءك ومولاك ، وابحث عن الخلاص ، وهأنذا أقول لكم إنى قد تعمقت الدراسة ، فلم أجد قط للإنسان طريقاً سوى ولائه لمولاه وطاعة الإبن لآبائه »(١٠١) ؛ وكان « هاياشى » ينعم فى شيخوخته بشهرة هادئة ، حين شبت النار الكبرى فى طوكيو سنة ١٦٥٧ ، فشملته بين من قضت عليهم من أنفس بلغت مائة ألف ؛ وكان تلاميذه قد أسرعوا إليه ينذرونه بالخطر الداهم ، لكنه لم يفعل سوى أن هز رأسه وعاد بنظره إلى الكتاب ؛ فلما دنت منه ألسنة اللهب ، أمر بمحفة يحمل فيها ، وحملوه وهو لم يزل يقرأ فى كتابه ؛ وقضى ليلته تلك — كما قضاها غيره ممن لا يحصيهم العدد — قضاها فى العراء تحت نجوم السماء ؛ ومات بعد ذلك بثلاثة أيام متأثراً بالبرد الذى أصابه أثناء الحريق .

وعوضت الطبيعة اليابان عن موته ، بأن هيأت لها فى العام الثانى لموته رجلا من أشد أنصار الكونفوشيوسية حماسة ؛ وذلك هو « موروكيوسو » الذى اختار لنفسه « إله العلم » إلهاً يرعاه ؛ ففى صدر شبابه قضى ليلة بأسرها أمام ضريح « متشيزان » يؤدى الصلاة ؛ ثم وهب نفسه للعلم بعزم الشباب ، وكانت عزيمته شديدة الشبه بعزيمة معاصره سبينوزا(*) .

سأنهض من نومى كل صباح فى الساعة السادسة ، وآوى إلى مخدعى كل مساء فى الساعة الثانية عشرة

ولن أجلس بغير عمل إلا إذا حال دون ذلك أضياف أو مرض أو غير ذلك من ظروف قاهرة ...

لن أنطق بباطل

(*) راجع فاتحة كتاب سبينوزا « فى الإصلاح العقلى » .

http://nj180degree.com

سأجتنب الألفاظ التى لا تغنى شيئاً ، حتى إن كنت أوجه الحديث إلى من هم دونى

سأكون معتدلا فى طعامى وشرابى

وإذا اشتعلتْ فىَّ الشهوات ، سأقضى عليها فوراً ، دون أن أعينها قط على التزايد

ن تشتت الفكر يفسد قيمة القراءة ، فسأقاوم جهدى كل ما يصرفنى عن حصر انتباهى ، وسأقاوم فى نفسى العجلة الزائدة .

سأسعى إلى تثقيف نفسى بنفسى ، ولن أسمح للرغبة فى الشهرة أو فى الكسب أن تحدث فى عقلى اضطراباً .

إنى سأنقش هذه القواعد فى صفحة قلبى ، وسأحاول أن أتبعها .

وإنى لأشهد الآلهة على ما أقول(١٠٢)

ومع ذلك فلم يكن « كيوسو » ليدعو الناس إلى عزلة العلماء التى نعهدها فى رجال العصور الوسطى ، بل كان له من رحابة الأفق ما كان « لجيته » ؛ فوجَّه نفسه وجهة تساير العالم فى مجراه :

إن اعتزال الناس أحد الطرق ، وإنه لطريقة جميلة ، لكن الرجل الأعلى يسره أن يزور الأصدقاء ؛ إن الرجل ليصقل نفسه صقلا باتصاله بالناس ؛ وإن من أراد تحصيل العلم ، لا مندوحة له عن الصقل عن هذا الطريق ؛ أما إن اعتزل كل شىء وكل إنسان ، فإنما هو بذلك يجاوز جادة الصواب ... إن طريق الحكماء ليس منفصلا عن طريق الحياة اليومية . فعلى الرغم من أن البوذيين يستحبون أنفسهم من العلاقات الإنسانية ، فيبترون الرابطة بين المتبوع وتابعه ، وبين الوالد وولده ، فهم عاجزون عن بتر علاقة الحب من أنفسهم . . . . إنها أنانية أن تسعى وراء السعادة فى العالم الآخر . لا تظنوا أن الله بعيد عنكم . بل ابحثوا عنه فى قلوبكم ، لأن القلب هو مقر الإله(١٠٣).

j180degree.com

وأروع من يستوقف النظر من هؤلاء الكونفوشيوسيين اليابانيين القدامى رجل لا يسلكونه عادة فى عداد الفلاسفة ، لأن مثل « جيته » ومثل « إمرسن » كانت له القدرة على صياغة حكمته فى عبارة رشيقة ، فأحس الأدب غيرة عليه ، وطالب به عضواً فى جماعة الأدباء ، وذلك هو « كايبارا إكِنْ » الذى كان ابن طبيب مثل أرسطو ، ثم خرج عن دائرة الطب إلى فلسفة تجريبية تتصف بالدقة والحذر ، فعلى الرغم من مشاركته فى الحياة العامة بسيرة مليئة بالعمل ، بما فى ذلك كثير من المناصب شغلها ، فقد وجد من وقته فراغاً يستعين به على أن يكون أعظم علماء عصره ؛ وبلغت كتبه عدداً يربى على المائة ، فكتبت له الشهرة فى أرجاء اليابان جميعاً ؛ وذلك لأنه لم يكتب كتبه تلك باللغة الصينية (كما كانت عادة زملائه الفلاسفة) بل كتبها باليابانية السهلة التى يستطيع كل من عرف القراءة أن يفهمها ؛ وعلى الرغم من علمه وشهرته ، فقد كان له — إلى جانب الغرور الذى تراه عند كل كاتب — تواضعٌ كالذى تراه عند كل حكيم ، ويروى الرواة أن مسافراً على سفينة كانت تشق طريقها بحذاء الساحل اليابانى ، تعهد لزملائه فى السفر أن يحاضرهم فى الأخلاق الكونفوشيوسية ؛ فأنصت له الجميع بادئ ذى بدء بما عرف عن اليابانيين من حب استطلاع وشغف بالزيادة من العلم ؛ ولكن ماكاد يمضى المتكلم فى حديثه قليلا ، حتى وجد السامعون أن كلامه يبعث الملل إذ لم يكن للرجل أنف حساسٌ يهديه إلى التميز بين الحقيقة الحية والحقيقة الميتة ، فانصرفوا عنه بعد وقت وجيز ، ولم يبق منهم إلا سامع واحد ، راح هذا السامع الواحد يتتبع البحث بتركيز عجيب فى انتباهه ، حتى سأله المحاضر حين فرغ من محاضرته ، ما اسمه ، فأجابه بصوت هادئ إن اسمه « كايبارا إكن » ؛ فخجل الخطيب إذ علم أنه لبث ساعة أو يزيد ، يحاول أن يلقن الكونفوشيوسية لرجل هو ألمع أعلام المذهب الكونفوشيوسى فى عصره (١٠٤) .

كانت فلسفة « إكن » خالية من اللاهوت خلو فلسفة « ك أونج » منه إذ

http://nj180degree.com

حصر نفسه فى حدود هذه الدنيا ما دام لا سبيل إلى معرفة سواها ؛ « إن حمق الناس يؤدون صلواتهم لآلهة مشكوك فى وجودها ، طلباً لسعادة أنفسهم فى الوقت الذى تراهم فيه يقترفون الموبقات[١٠٥] » ؛ وحاول أن تكون فلسفته عاملا على توحيد خبرة الحياة وحكمة العقل ، وتوحيد الشهوات والخلق المستقيم ، فقد كان من رأيه أن الأمر الأهم الذى يدعو قبل غيره إلى التفكير ؛ هو كيف نجعل من الشخصية الإنسانية وحدة متكاملة ، فذلك أجدى علينا من التفكير فى كيفية توحيد المعرفة ، وتراه يتحدث بلسان يدهشك أن تلمح فيه نغمة الزمن الذى نعيش فيه الآن .

« ليس الغرض من التعلم هو مجرد التوسع فى المعرفة ، بل الغرض هو تكوين الشخصية ؛ غاية التعلم أن نخلق من أنفسنا رجالا صادقين قبل أن نكون رجالا عالمين ... إن دراسة الأخلاق التى كانت تُعَدُّ عماد التعليم فى مدارس العهد القديم تكاد لا تجد مكاناً فى مدارسنا اليوم ، لكثرة ما يطلب إلى التلاميذ دراسته من مواد ؛ لم يعد الناس يرون فى صالحهم أن ينفقوا مجهودهم فى الإصغاء إلى تعاليم الأعلين من رجال الحكمة القدماء ونتج عن ذلك أن ضحينا على المذبح الذى يسمونه « حق الفرد » بعلاقات الود بين السيد وخادمه ، والرئيس ومرءوسيه ، والكبير والصغير . السبب الحقيق الذى حدا بالناس ألا يقدروا تعاليم الحكماء هو أن العلماء يحاولون أن يتظاهروا بعلمهم فذلك عندهم أولى من أن يعيشوا على غرار ما جاء فى تعاليم الحكماء »[١٠٦] .

ويظهر أن شباب عصره قد توجه إليه باللوم على جموده ، لأننا نراه يلقى فى وجوههم درساً لا بد لكل جيل قوى من الناس أن يعود إلى دراسته :

« قد تظنون يا أبنائى أن كلمات رجل كهل تدعو إلى السأم ومع ذلك فإذا ما لقنكم أبوكم درساً ، فلا تزورّوا عنه ، بل اصغوا إلى ما يقول ؛ قد

j180degree.com

تظنون أن تقاليد أسرتكم أمر سخيف ، ومع ذلك فلا تحطموها ، لأنها تجسيد لحكمة آبائكم »(٧٠١) .

ولعله كان يستحق اللوم على أهم كتبه وعنوانه « أونا ديكاكو » ومعناه « الحكمة العظمى للنساء » لأن هذا الكتاب كان له تأثير رجعى قوى على مركز المرأة فى اليابان ، لكنه لم يكن واعظاً متجهماً يحاول أن يتلمس الخطيئة فى كل ما يجلب المتعة ، فقد أدرك أن من مهام المربى أن يعلمنا كيف نستمتع بالبيئة التى نعيش فيها ، كما يعلمنا أن نفهم تلك البيئة وأن نتحكم فيها (إذا استطعنا) :

« لا تدعوا يوماً واحداً يفر من أيديكم بغير متعة . . . لا تسمحوا لحماقة الآخرين أن تنال من أنفسكم تعذيباً . . تذكروا أن الدنيا لم تخل من الحمق منذ أول خلقها . . . فلا ينبغى إذن أن نغم أنفسنا ، أوأن نضيع أسباب متعتنا ، حتى إن حدث لأبنائنا وأشقائنا وأقربائنا أن يكونوا أثرين فيتجاهلوا خير مجهوداتنا فى سبيل إسعادهم . . . إن « ساكى » (نوع من الخمر) هو هبة السماء الرائعة ، فهى توسع القلب إذا ما شربناها بمقادير قليلة ، وهى كذلك تنعش الروح إذا ما ناله الهم ، وتفرق الهموم وتصلح الصحة ، وبذلك تعين الإنسان وأصدقاءه أيضاً على التمتع بأسباب اللذة ، غير أن من يسرف فى شرابها يفقد احترامه ، وينزلق لسانه بالثرثرة ، وينطق بكلمات مسيئة كأنه مجنون . . . اشربوا « الساكى » بالمقدار الكافى لإنعاش نفوسكم ثم لا زيادة ، وبذلك يمكنكم أن تتمتعوا برؤية الزهر وهو يتفتح من أكمامه ، إن من الحمق أن تسرف فى الشراب فتفسد على نفسك هذه الهبة العظيمة التى وهبتها لك السماء »(١٠٨)

ولقد وجد — كما وجد غيره من سائر الفلاسفة — أن الطبيعة هى آخر موئل يلوذ به ليلتمس سعادته :

« لو أننا جعلنا قلوبنا معين النعيم . وأعيننا وآذاننا أبوابه ، ثم اجتنبنا سافل الشهوات إذن لتكاثر نعيمنا ، لأننا عندئذ نصبح سادة الجبال والماء والقمر

http://nj180degree.com

والزهور ؛ ولا يكون بنا حاجة إلى سؤال أحد يهبنا هذه الأشياء ؛ كلا ولا بنا أن ندفع سناً (مليما) واحداً لنظفر بها ، لأن هذه الأشياء لا يملكها إنسان بعينه إن أولئك الذين يستطيعون أن يستمتعوا بجمال السماء من فوقهم ، وجمال الأرض من تحتهم ، ليس بهم حاجة إلى أن يغبطوا الأغنياء على رفاهية عيشتهم ، لأنهم عندئذ يكونون أغنى من أغنى الناس ؛ إن مشاهد الطبيعة فى تغير دائم ، فلست تجد صباحين أو مساءين على أتم تشابه ... ففى لحظة ما قد يحس الإنسان كأن جمال الدنيا بأسره قد انمحى ؛ لكن ما هو إلا أن يأخذ الثلج فى السقوط ، وينهض الإنسان من نومه فى الصباح التالى ، ليجد القرية والجبال قد تحولت إلى فضة ، وتدب الحياة فى الأشجار التى كانت عارية ، إذ يعود إليها بأزهارها ... إن الشتاء يشبه نعاس الليل ، الذى يجدد لنا القوة والنشاط .

إننى أحب الزهر ، فأنهض من نومى مبكراً
وأحب القمر ، فآوى إلى مخدعى متأخراً ...
إن الناس يجيئون ويروحون كأنهم مجارى الماء العابرة
أما القمر فباق على طول العصر(١٠٩)

لقد كان تأثير الكونفوشيوسية على التفكير الفلسفى فى اليابان أشد منه فى الصين نفسها ، لأنه قضى هناك على كل مقاومة من فريق الثائرين من جهة ، كما قضى على المثاليين المتصوفين من جهة أخرى ؛ إن مدرسة « شوشى » التى كان من رجالها « سيجوا » و « رازان » و « إكن » ، التى سميت بهذا الاسم نسبة إلى « شوهسى » لأنها اتبعت طريقته فى تفسير الكتب الصينية التى تحتوى على المتون ، تفسيراً توخى فيه التزام الأصل وعدم الحرية فى التصرف ، ولقد نهضت مدرسة أخرى ظلت تقاومها حيناً ، هى مدرسة « أويومى » التى كان على رأسها « وانج يانج منج »(*) الذى عرفه « نيبون » باسم « أويومى »

(*) راجع ما جاء عنه فى هذا الجزء الخاص بالمدينة فى الصين من هذه السلسلة .

j180degree.com

ففلاسفة اليابان الذين كانوا ينتمون إلى مدرسة « أويومى» اقتفوا أثر « وانج » فى استدلال الصواب والخطأ الأخلاقيين من ضمير الفرد ، أكثر مما عمدوا فى ذلك إلى تقاليد المجتمع وتعاليم الحكماء الأقدمين ، يقول « ناكاي توجو » (١٦٠٨ — ٤٨) : « لقد لبثت أعواماً طوالا أومن إيماناً قوياً فى « شوشى » حتى شاءت رحمة الله أن ترد إلى اليابان لأول مرة مؤلفات « أيومى » ، ولولا ما استقيته من تعاليمها ، لظلت حياتى فارغة جدباء »(١١٠) ، وعلى ذلك أخذ « ناكاي » على نفسه أن يبشر بوحدانية مثالية ، تذهب إلى أن العالم وحدة من « كى » و « رى » — أى وحدة من الأشياء الجزئية (أو الأعراض) والعقل أو القانون ؛ والله ، وهذه الوحدة شىء واحد ؛ فعالم الأشياء جسده والقانون الكونى روحه(١١١) ، فقد جرى « ناكاي » مجرى « سبينوزا » و « وانج يانج منج » والفلاسفة المدرسيين فى أوربا » فى قبوله لهذا القانون الكونى بشىء من الحب العقلى ، واعتبر الخير والشر لفظتين بشريتين ، ووجهة نظر ذاتية لا تعبر عن حقائق موضوعية ، وهو كذلك يشبه « سبينوزا » شبهاً عجيباً فى أنه رأى معنى من معانى الخلود فى الوحدة التأملية التى تدمج روح الفرد فى قانون العالم أى عقل العالم الذى لا يخضع لقيود الزمان :

« إن عقل الإنسان هو عقل العالم الذى يخضع فى سيره لمنطق العقل ، لكن هناك عقلا آخر يسمى بالضمير ، وهذا هو الجانب الذى لا ينتمى إلى عالم الأشياء بل هو لا نهائى وأبدى ، لأنه لما كان الضمير فينا هو نفسه العقل الإلهى أو الكونى ، كان بغير بداية أو نهاية ، فإذا ما سلكنا فى أفعالنا مهتدين بهذا الجانب من العقل ، أى بالضمير كنا بمثابة التجسيد اللانهائى والأبدى ، وكانت لنا حياة خالدة إلى الأبد »(١١٢) .

كان « ناكاي » رجلا له إخلاص القديسين ، لكن فلسفته لم تصادف هوى لا عند الشعب ولا عند الحكومة ، فقد ارتعدت حكومة الحكام

http://nj180degree.com

العسكريين للفكرة القائلة بأن كل إنسان له حق الحكم بنفسه فيما يعتبر صواباً وما يعتبر خطأ ، فلما نهض رجل آخر ، هو « كومازاوا بانزان » يبشر بمذهب « أويومى » ثم تجاوز حدود الميتافيزيقا وأوغل فى السياسة ، بحيث انتقد جهل « السيافين » وخواء حياتهم ، صدر أمر بالقبض عليه ، وكان « كومازاوا » يدرك أهمية العقبين فى الإنسان ، باعتبارهما عضوين ينفعان الفلاسفة بصفة خاصة فى الفرار ، فهرب إلى الجبال ، حيث قضى معظم ما بقى له من سنين فى غمرة الغابات[١١٣] ، وفى سنة ١٧٩٥ صدر مرسوم يحرم المضى فى تعليم فلسفة « أويومى » ، وكان العقل اليابانى من الاستسلام بحيث توارت تعاليم « أويومى » منذ ذلك الحين ، فاندست فى عبارات كونفوشيوسية ، أو دخلت عنصراً متواضعاً فى القانون العسكرى ، مما يدل على ما قد يبديه مجرى التاريخ من متناقضات ، إذا حولت العقيدة البوذية المسالمة إلى تعاليم توحى للمقاتلين المتحمسين للوطن بالقتال .

ولما تقدم البحث العلمى فى اليابان ، بحيث صار فى مقدور العلماء أن يتصلوا بكونفوشيوس فى أصوله إلا فى شروح الشارحين استطاع رجال من أمثال « إيتوجنسى » و « أوجيوسورای » أن يؤسسوا المدرسة الكلاسيكية للفكر اليابانى ، التى أصرت على أن تتخطى الشارحين جميعاً ، فتصل بـ « ك أونج » العظيم اتصالا مباشراً ، ولم تكن أسرة « إيتوجنسى » لتتفق معه فى تقديره لكونفوشيوس ووصمته بأنه يسبح من دراساته فى عالم نظرى مجرد ، وتنبأت له بأنه سيموت فقيراً وأنبأته : « بأن البحث العلمى من خصائص أهل الصين ، أما فى اليابان فليس البحث العلمى بذى غناء ، لأنك حتى إن برعت فيه ، فلن تجد من تبيع له بضاعتك ، وخير لك ألف مرة أن تكون طبيباً وتكسب المال » لكن الطالب الناشئ أصغى إلى قول أسرته دون أن يستمع له ، ونسى منزلة أسرته وثراءها ، واطرح كل طموح مادى جانباً ، وتنازل عن بيته وأملاكه إلى أخيه الأصغر ، والتمس مكاناً معزولا يعيش فيه ليتابع

j180degree.com

دراساته بغير اضطراب وكان ولاسيما حتى لقد ظنه الناس أحياناً أميراً ، لكنه ارتدى ثوب فلاح وتوارى عن أعين الناس ، يقول مؤرخ يابانى :

إن « چنسى » كان فقيراً معدماً ، بلغ من الفقر حداً أعجزه فى نهاية العام أن يصنع كعك الأرز الذى يصنعه الناس فى بداية العام الجديد ؛ لكنه كان ثابت الجنان إزاء فقره هذا ؛ ولقد جاءته زوجته وجثت على ركبتيها أمامه وقالت : « سأؤدى واجبات الدار مهما تكن الظروف لكن ثمت شيئاً لا يحتمل ، ذلك أن ولدنا « چنسو » لايفهم معنى ما نحن فيه من فقر ، وهو يغبط أبناء الجار على ما يأكلونه من كعك الأرز ، وإننى أوئنبه على ذلك ، لكن قلبى ينفطر له حتى ليكاد ينشق نصفين » لكن چنسى مضى منكباً على كتبه دون أن يجيبها بكلمة ، ثم خلع خاتمه العقيق وناولها إياه ، كأنما يقول لها : بيعى هذا واشترى بضعة كعكات من الأرز »[١٠٤] .

أنشأ « چنسى » فى كيوتو مدرسة خاصة ، وأخذ يحاضر هناك مدى أربعين عاماً ، وأهم ما قام به أنه درب عدداً يقرب من ثلاثة آلاف طالب فى الفلسفة وكان يتحدث آناً بعد آن فى الميتافيزيقا ، ويصف الكون بأنه كائن عضوى حى ، تتغلب فيه الحياة على الموت دائماً ، لكنه كان مثل كونفوشيوس يتحيز تحيزاً شديداً لما هو نافع على هذه الأرض .

« إن ما لاينفع فى حكم الدولة ، أو فى تيسير العلاقات بين أفراد الإنسان ، لاغناء فيه ... لا بد للتعلم أن يكون مصحوباً بالفاعلية والحياة ؛ ولا ينبغى أن يقتصر على مجرد النظريات الميتة أو التأمل ... إن من يعرف الطريق يلتمسها فى حياته اليومية ... إنك إذا حاولت أن تلتمس الطريق بعيداً عن العلاقات الإنسانية ، فأنت بمثابة من يحاول أن يمسك الريح ... إن الطريق المألوفة ممتازة بحسنها ، ولن نجد فى العالم ما يفوقها حسناً »[١١٥] .

http://nj180degree.com

وبعد موت « چنسى » مضى ولده « إيتو توجاى » فى مواصلة مدرسته وعمله ؛ وكان « توجاى » يهزأ بالشهرة ويقول « هل يسعك أن تسمى من ينسى اسمه بمجرد موته إلا بأحـــد اسمين ، فإما حيوان وإما رماد ؟ ولكن ألا يخطئ الإنسان إذا ما اشتدت رغبته فى تأليف الكتب وإنشاء العبارات لكى يلقى اسمه إعجاباً ولا ينساه الناس ؟ »(١١٦) وهو نفسه كتب مائتين واثنين وأربعين كتاباً ، ومع ذلك عاش حياة متواضعة تملؤها الحكمة ؛ ويشكو النقاد من أن هذه الكتب كانت كلها قوية فيما أسماه « موليير » بالفضائل التى تجلب النعاس ولكن تلاميذ « توجاى » يقولون إنه كتب مائتين واثنين وأربعين كتاباً دون أن يقول كلمة واحدة عن أى فلسوف آخر ، ولما مات وضعوا على قبره هذا « الشاهد » الذى نغطبه عليه :

إنه لم يتحدث فى أخطاء الآخرين ...
ولم يهتم بشىء إلا بالكتب
وكانت حياته خلواً من الحوادث(١١٧)

على أن أعظم رجل من أتباع كونفوشيوس المتأخرين ، هو « أوجيوسوراى » فعلى حد قوله هو « منذ عهد جمو — أول أباطرة اليابان — لم يظهر من يوازينى إلا نفر قليل » وهو على نقيض « توجاى » فى أنه كان يحب النقاش ، وكان يعبر عن رأيه بقوة عن الفلاسفة الأحياء منهم والأموات ؛ فلما سأله سائل شاب : « ماذا تحب غير القراءة ؟ » أجاب « ليس أحبَّ إلىَّ من أكل الفول المحروق ونقد عظماء اليابان » ويقول « ناميكاوا تنچين » : « إن سوراى رجل جد عظيم ، لكنه يظن أنه يعلم كل مايمكن علمه . وهذه عادة سيئة »(١١٨) ، وكان فى مستطاع « أوجيو » أن يكون متواضعاً إذا ما أراد ذلك ، ومن رأيه أن اليابانيين جميعاً — ويذكر نفسه بينهم صراحة — قوم همج ، وليس يعرف المدنية غير أهل الصين ، وأنه « إذا كان هناك شىء لا بد من قوله ، فقد قاله

j180degree.com

بالفعل الملوك القدامى أو كونفوشيوس»[١١٩]، وثارت فى وجهه فئة « السيافين » وفئة العلماء ، لكن الحاكم العسكرى المصلح « يوشيمونى » أعجبته فيه شجاعته ودافع عنه ضد السوقة العقلية ، وقد أقام « سورای » منبره فى «بيدو» وراح يضحك ويسخر من « چنسى » الذى كان قد أعلن أن الإنسان خير بطبعه ، فما أشبهه فى ذلك بـ « هسون تسى » حين عارض النزعة العاطفية فى « موتى » أو بـ « هُبز » حين فند « روسو » قبل أن يأتى « روسو » إلى عالم الوجود ، وقال : « سورای » إن الإنسان — على نقيض ما ظنه « چنسى » — شرير بطبعه ، يختطف كل ما تقع عليه يداه ، ولا يجعل منه مواطناً مقبولا إلا الأخلاق والقوانين الموضوعتين ، والتربية التى لا تلين فى معاملته :

« تثور فى الإنسان شهواته بمجرد ولادته ، فإذا عجز ناعن تحقيق تلك الشهوات فى أنفسنا — وهى شهوات لا حد لها — ينشأ النزاع ، فإذا ما نشأ نزاع أعقبته الفوضى ، ولما كان الملوك القدامى يكرهون الفوضى ، فقد وضعوا أسس اللياقة والاستقامة فى السلوك ، واستطاعوا بهما أن يلجموا شهوات الناس ... فليست الأخلاق سوى الوسائل الضرورية لضبط رعايا الإمبراطورية فهى لم تنشأ مع الفطرة ولا مع نزوات القلب الإنسانى لكنها من تدبير طائفة معينة من الحكماء امتـــازت بذكائها ، ثم خلعت عليها الدولة مسحة السلطان[١٢٠] .

وكأنما أرادت الأيام أن تثبت تشاؤم « سورای » ، فهبط الفكر اليابانى فى القرن الذى تلاه ، هبط حتى عن الحد المتواضع الذى كان قد ارتفع إليه بفضل محاكاته لكونفوشيوس ، وضاع أباديد فى حرب أراقت المداد بين وثنيى الصين ومؤمنى اليابان ، وفى هذه الحرب التى شنها الأقدمون على المحدثين ، كتب النصر للمحدثين ، لأنهم جعلوا الأسلاف موضع إعجابهم ، فتفوقوا فى ذلك على أعدائهم وكانت الطائفة التى تناصر الصين من العلماء « واسمها كانجا كوشا » تسمى بلادهم اليابان — وهى وطنها — قطراً همجياً ،

http://nj180degree.com

واحتجت بأن الحكمة كل الحكمة مقرها فى الصين ، وقنعت بترجمة الأدب والفلسفة الصينيين والتعليق عليهما ، أما العلماء الذين يناصرون اليابان (واسم جماعتهم واجا كوشا) فقد هاجموا هذا الموقف من معارضيهم لأنه موقف يؤدى إلى إشاعة الجهل ونبذ الروح الوطنية ، ودعوا أمتهم أن تستدبر الصين ، وأن تجدد قواها بالأخذ عن تراثها هى من شعر وتاريخ ، وهاجم «مايوشى» أهل الصين قائلا إنهم قوم أشرار بفطرتهم ، ومجد اليابانيين لأنهم خيرون بطبعهم ، وعزا فقر اليابان القديمة فى الأدب والفلسفة إلى أن اليابانيين لم يكونوا بحاجة إلى إرشاد فى الفضيلة ولا فى العقل(*) .

وحدث لطبيب شاب اسمه « موتو أورى نوريناجا » أن زار « مايوشى » فتأثر به إلى حد جعله ينفق أربعة وثلاثين عاماً فى كتابة أربعة وأربعين مجلداً ، بشرح فيها الـ « جوچيكى » ومعناها « مدونات الحوادث القديمة » — وهى المستودع الأصيل لأساطير اليابان ، وخصوصاً أساطير « شنتو » ، فجاء هذا الشرح بعنوانه « كوچيكى دن » ، هجمة عنيفة على كل ما هو صينى فى اليابان أو خارج اليابان ، واستمسك استمساكاً شديداً بالصحة الحرفية لما ترويه القصص البدائية عن الأصل الإلهى الذى نشأت عنه الجزر اليابانية ، والأباطرة والشعب ، وشجع هذا الكتاب طبقة المثقفين فى اليابان — رغم أنف الأوصياء على العرش عندئذ من أفراد أسرة توكوجاوا — شجعهم على الرجوع إلى لغة بلادهم وطرائق العيش فيها وتقاليدها ، ومعنى ذلك كله أن يعيدوا عقيدة « شنتو » بدلا من البوذية ، وأن يردوا للأباطرة سيادتهم على طبقة

(*) العبارة الآتية مقتبسة من تعاليم « مايوشى » كما بسطها « سير أ . ساتو » : « لما كانت ميول الناس فى العصور الخالية مستقيمة . لم يكن من الضرورى أن يتخذوا تشريعاً خلقياً معقداً ... لم يكن من الضرورى فى تلك الأيام أن يكون للناس مذهب فى الصواب والخطأ ، أما أهل الصين ، فلأنهم أشرار بفطرتهم ... كانوا خيرين فى الظاهر وحده وكانت أفعالهم الشريرة من الفداحة بحيث وقعت الجماعة فى حالة من الفوضى ؛ ولأن اليابانيين كانوا على استقامة فى الخلق ، فقد استغنوا عن التعلم(١٢١) .

j180degree.com

الحكام العسكريين ، فقد كتب « موتو أورى » يقول : « كانت اليابان هى التى ولدت إلهة الشمس « آماتيراسو » ، وتدل هذه الحقيقة على سيادتها على سائر الأقطار جميعاً »(١٢٢) ، واستأنف تلميذه « هيراتا » — بعد موت موتو أورى — سبيل المحاجة فى الموضوع فقال :

« إنه لمما يدعو إلى الأسف الشديد ، أن يسود كل هذا الجهل بالشواهد التى تدل على المذهبين الأساسيين ، وهما أن اليابان بلد الآلهة ، وأهلها سلالة الآلهة فبين الشعب اليابانى وبين الصينيين والهنود والروس والهولنديين والساميين والكمبوديين وسائر أمم العالم ، خلاف فى النوع ، ولا يقتصر الأمر على اختلاف فى الدرجة ، فلم يكن مجرد الغرور بالنفس هو الذى جعل أهل هذه البلاد يسمونها أرض الآلهة ؛ فالآلهة الذين خلقوا كل بلاد الدنيا ينتمون جميعاً بغير استثناء إلى العصر الإلهى ، وجميعهم ولدوا فى اليابان ، فاليابان هى موطنهم الأول ، والعالم كله يعترف بصدق هـــذا النبأ ، فالكوريون هم أول من أتيح له أن يعرف هذه الحقيقة ثم انتشرت منهم تدريجاً حتى عمّت المعمورة بأسرها ، وآمن بها الناس أجمعون ... فلئن كانت البلاد الأخرى قد نشأت طبعاً بفعل قوة الآلهة الخالقة ، إلا أنها لم تكن وليدة « إيزاناجى » و « إيزانامى » ، ولا كانت المنشأ الذى ولدت فيه إلهة الشمس ، وهذا هو علة انحطاطهم عنا »(١٢٣) .

هؤلاء هم الناس ، وتلك هى الآراء ، التى كونت حركة « سونوچوإى » ومرماها أن « تسمو بالإمبراطور ، وأن تطرد الأجانب الهمج » ؛ فكنت هذه الحركة إبان القرن التاسع عشر للشعر اليابانى أن يطيح بسلطة الحكام العسكريين ؛ وأن يعيد السلطان والسيادة « للبيت الإلهى » ، ثم أخذت هذه الحركة تلعب دوراً نشيطاً فى القرن العشرين ، إذ أخذت تغذى تلك الوطنية المستقلة التى لن تطمئن وترضى إلا إذا بسط « ابن السماء » سلطانه على ملايين الناس فى بلاد الشرق التى تعود ، إلى بعثها ، متكاثرة بخصوبة نسلها .